إلى والدي

في الحوزة العلمية

بقلم

الشيخ عبد الرزاق فرج الله الأسدي

شبكة الفكر
alfeker.net

إلى والدي

في الحوزة العلمية

بقلم

الشيخ عبد الرزاق آل فرج الله الأسدي

الكتاب: إلى ولدي في الحوزة العلمية.

المؤلف: الشيخ عبد الرزاق فرج الله الأسدي.

التدقيق اللغوي: لؤي عبد الرزاق فرج الله الأسدي.

الإخراج الطباعي: علاء سعيد الأسدي.

المطبعة : دار الضياء / النجف الأشرف

الطبعة: الثانية.

عدد النسخ: ٢٠٠٠

الإهداء

إلى: الإخوة والأبناء في الإيمان والعمل الصالح.

إلى: رسل الله في الأرض، الذين نذروا أنفسَهم للتعلّم والتعليم فنفروا لاستلهام علوم ومعارف أهل البيت عليهم السلام.

إلى: حملة رسالة العلم والتبليغ، أهدي هذا القليل المستقى من وصايا أهل البيت الطاهر عليهم السلام عسى أنْ يكون لي ولهم ومْضة وذكرى في العاجل، وذخيرة خالصة للآجل.

فتقبّلوا هذا المتواضع من أخيكم الأقل.

المؤلِّف

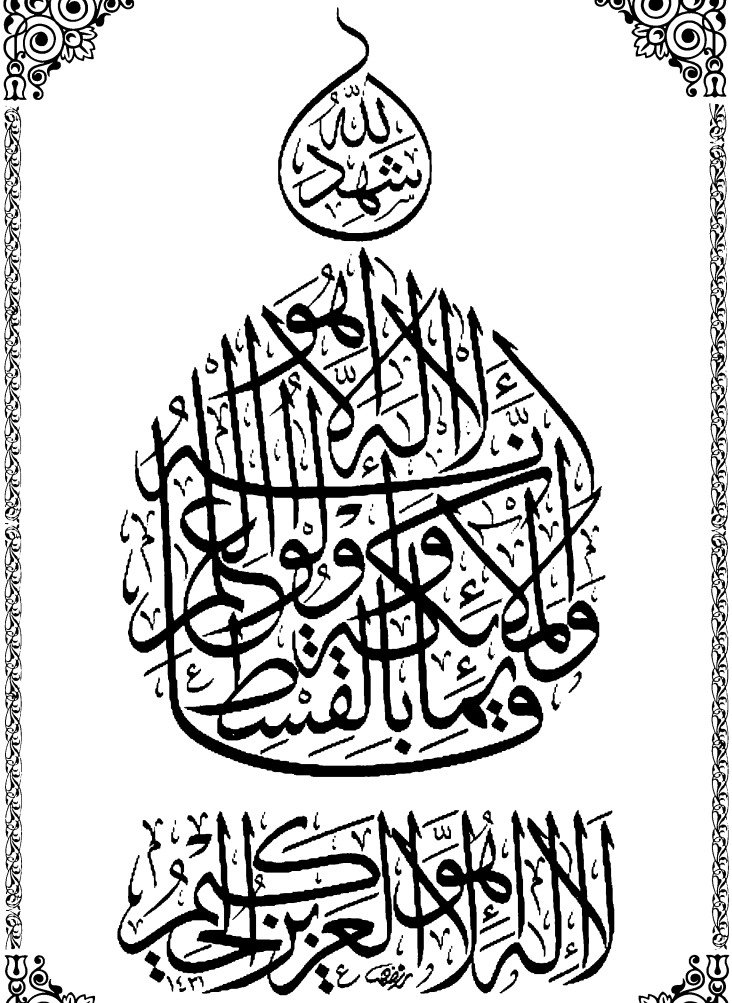

شهد الله
أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط
لا إله إلا هو العزيز الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، المبعوث رحمةً للعالمين، سيّدنا محمد وعلى آله الهداة الطيّبين الطاهرين، وبعد:

فقد قال الله عزّوجلّ: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[1].

عن عبد المؤمن الأنصاري، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ قوماً يروون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**اختلافُ أمّتي رحمة**)فقال: «**صدقوا**) فقلت: إن كان اختلافهم رحمة فاجتماعهم عذاب؟.

قال عليه السلام: «**ليس حيث تذهب وذهبوا، إنّما أراد قول الله عزّوجلّ: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ**

---

(١) التوبة: ١٢٢.

﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

فأمرهم أن ينفروا إلى رسول الله ﷺ ويختلفوا إليه، فيتعلّموا ثم يرجعوا إلى قومهم فيعلّموهم، إنّما أراد اختلافهم من البلدان اختلافاً في دين الله، إنّما الدين واحد[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**فقيهٌ واحد أشدّ على إبليس من ألف عابد**»[٢].

نستوحي من هذا النصّ الشريف - يا ولدي - أنّ الفقيه يمتلك عناصر القوّة التي بها يعلّم الجاهل ويرشد الضالّ، ويلقي إليه حزمة الضوء على مجاهل الطرق لتبدّد ظلمة الحيرة بين يديه، فيتغلّب بها على مكائد ومصائد إبليس، الذي يتحرّى دائماً مواقع الضعف في هذا الإنسان، وفي مقدّمتها الفراغ الفكريّ والرّوحيّ، والجهل بضوابط وأحكام السلوك.

وعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّا لنحبّ من شيعتنا من كان عاقلاً فهماً فقيهاً سليماً مداراً صبوراً صدوقاً وفياً**..... الحديث»[٣].

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ١ / ٢٢٧- ٢٢٨

(٢) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ١ / ١٧٧

(٣) الميرزا النوري: مستدرك وسائل الشيعة: ١١ / ١٨٧

ومن كلمات مولانا الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «**تفقّهوا في دين الله، فإنّ الفقه مفتاح البصيرة وتمام العبادة والسبب إلى المنازل الرفيعة والرتب الجليلة في الدين والدنيا وفضل الفقيه على العابد كفضل الشمس على الكواكب، ومن لم يتفقّه في دينه لم يرضَ اللهُ له عملاً**»[1].

فقد جعل الله العلم - يا ولدي - دليلاً على معرفته، ووسيلة لفهم شريعته، وعدّةً للجهاد في سبيل إعلاء كلمته، وباباً للدّخول إلى دار كرامته، فمن أراد الدّخول إلى دار كرامة الله والوصول الى مرفأ طاعته ورضاه فليسلك طريقاً يطلب فيه العلم، ووسيلة يتوصّل فيها للفهم.

لذا فإنّك تجد في كلّ مرحلة من مراحل التأريخ رعيلاً من المؤمنين، من مختلف بلاد المسلمين، ممّن وجدوا في طلب العلم طريقاً إلى الله عزّوجلّ، وسبباً لنيل الرّضا منه، وسبيلاً للفوز في المحلّ الذي لديه، قد نفروا لتجنيد أنفسهم في طلبه، ولأخذ العدّة منه للنزول إلى حلبة الصّراع المتجذّر في أعماق الزمن، ضدّ سلطان الجهل وأركان الانحراف.

وبما أنّ ما عند الله تعالى لا يُنال إلّا لمن أخلص له نيّاته، وهجر في سبيله راحته ولذّاته، وكرّس للعلم والعمل الصّالح جلّ أوقاته، وتزيّن بمحاسن الدّين وجميل صفاته.

---

(١) الشيخ علي النمازي ـ مستدرك سفينة البحار: ٨ / ١

فقد رأيت أنْ أقدّم - بين يديك يا ولدي - هذه الإلمامة اليسيرة المستلهمة من أحاديث أهل البيت عليهم السلام، ومن تأريخ مدرسة العلم الخالدة، التي ما زالت وستبقى باسقة على قمّة عليائها، تتألّق بجهابذة علمائها، وتتحرّك بحسن أدائها، وتفخر بجميل عطائها، على يد ثلّة من أهل العلم والفضيلة.

وبما أنّ للحوزة وطالب العلم رسالتين متلاحمتين، تلتقيان في خطّ المسؤوليّة العامّة في حياته وحركته العلميّة، هما:

١- رسالة العلم. ٢- رسالة التبليغ.

لذا فإنّ لكلّ من هاتين الرّسالتين - يا ولدي - محوراً لاستذكار بعض العبر والعظات من خلال الحديث مع نفسي ومعك، لكونك المتقدِّم للانتماء إلى الحوزة العلميّة.

أسأل الله العليّ القدير جلّ في علاه، أنْ ينفعني وإيّاك بما نستذكره من العبر والعظات في طريقنا إليه ومن أجل رضاه، عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير.

المؤلِّف

*****

المحور الأوّل

الحوزة ورسالة العلم

معنى كلمة الحوزة

الحـوزة: كلمة مأخوذة من الحيـازة، وحيازة الـشيء: اغتنامه والحصول عليه من منطلق الحبّ له والرّغبة فيه، كاغتنام وتحصيل المال والحطام، وحاز الشيء يَحُوزه: إذا قبضه وملكه واستبدّ به.

وفي هذا المعنى ما جاء عن رسول الله ﷺ: «**من أصْبح معافىً في جسده، آمناً في سِربه، عنده قوت يومه، فكأنّما حِيْزَتْ له الدنيا**»[1].

وكما قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**منهومان لا يشبعان منهومُ علمٍ ومنهومُ مال**»[2].

فيشترك طالب العلم وطالب المال - يا ولدي - في نزعة الحيازة لدى الإنسان من ناحية، وفي مشروعية الطلب التي أعطاها الله له من ناحية أخرى، إلا أنّ الفرق بين حيازة المال، وبين حيازة العلم هو:

إنّ حيازة المال لتغذية وتربية البدن وإشباع حاجة مؤقّتة الى الطعام

---

(١) العلامة المجلسي ـ بحار الأنوار: ٧٤ / ١١٤

(٢) الشيخ الصدوق ـ الخصال: ١ / ٧٧.

واللباس، أمّا حيازة العلم فهي لتغطية كلّ شعب ومجالات الحياة، لذا فإنّ طالب المال في أغلب الأحيان يندفع بنهمة غريزيّة عمياء، قد لا تعترف بضوابط شرعيّة في طريق طلبه، ولا ينظر الإنسان -في اكتسابه- الى موارد الحلال أو الحرام فيه، فتراه يغمض فيه حلالاً وحراماً، ما لم يتفقّه في كيفيّة كسبه وصرفه.

أمّا العلم - يا ولدي - فإنّ طلبه مشروعٌ في كلّ مظانّه ومصادره وأنواعه، إلّا ما كان من العلوم الهدّامة المُضلّة، التي نهى عنها أئمّة أهل البيت عليهم السلام وحذّروا منها شيعتهم، حيث تظافرت النصوص وفتاوى العلماء - كما ستقرأ - على حرمة اقتناء كتب الضلال، التي كانت منحصرة في التوراة والإنجيل المحرَّفتين، إلا ما كان لغرض الردّ عليها.

ولكن أصبحت كتب الضلال اليوم، تشمل طروحات وأفكارًا متنوّعة تملأ مكتباتنا ويعجّ بها واقعنا الثقافي، ومنها ما يتّخذ صبغة إسلامية ومذهبية، وطرحاً ثقافياً وعلمياً مقنعاً، ولكنّه قد يكون موجاً فكريّاً وثقافياً شاذّاً عن واقع العقيدة والرسالة، يتحرّك في خطّ الغزو الثقافيّ الهادف.

ويعني الغزو الثقافي: أنّ هناك حركة منظّمة تتبنّاها مجموعات أو تنظيمات سياسية أو اقتصادية باتّجاه التسلّل إلى الأسس والمقوّمات

الثقافية للأمّة بقصد تحقيق مآربها وفرض التبعيّة الثقافية لها على الأمّة، واستبدال الثقافة المحلية بالثقافة الأجنبية الوافدة، واستبدال القيم والأخلاق الإسلامية بقيمٍ وأخلاق هابطة تتّسق مع أهداف الأجنبيّ.

واعلم - يا ولدي - أنّ الخشية من خطر الغزو الثقافيّ لم تقتصر على الواقع الإسلامي فحسب، بل إنّ هذا الشعور يعمّ كلّ أمّة تعتزّ وتفخر بثقافتها وحضارتها، حتى البلدان الكبرى ذاتها تحرص على صيانة هويّتها كروسيا وألمانيا وفرنسا، إلّا أمريكا وحدها التي تؤمن بالحرّيات الأربع، التي من ضمنها الحرية الفكرية فإنّها لا تخشى خطر الغزو الثقافيّ، لأنّها من ناحية لم تمتلك قاعدةً فكرية معينة أو فلسفة عن الكون والحياة تخشى عليها، ومن ناحيةٍ أخرى تجد نفسها الدولة القويّة ذات النفوذ في العالم بالقوّة العسكرية.

وإنّني عندما أعرض عليك ضرورة الشعور بخطر هذه الحركات، أودّ أن يكون هذا الشعور من ضمن وظيفتك العلميّة والعمليّة التي تتحرّك بها على ساحة الواقع الاجتماعي، فبعد تحصين وبناء ذاتك وصيانتها عن التأثّر بالتيارات المعاكسة، عليك إنضاج شعور الأمّة بقيمة العلوم الإسلامية وخطر الثقافات الوافدة عليها من هنا وهناك.

وقد حذّرت فتاوى علمائنا من ذلك قبل ما يزيد على ألف

عام في نطاق التحريم لاقتناء كتب الضلال، استناداً إلى نصوص المعصومين عليهم السلام، كما قال الإمام أميرُ المؤمنين علي عليه السلام: «**ربّ علمٍ أدّى إلى مضلّتك**»[1]، وعنه عليه السلام: «**كلّ علم لا يؤيّده عقلٌ مَضَلّة**»[2].

ولعلّك تقول: كيف يُسمّى ما يؤدّي إلى المضلّة، وما لا يؤيّده العقل علماً؟، ثم أين هذا المنع من حرية الفكر؟، خصوصاً في هذا العصر الذي يسمى بـ«عصر الانفتاح» على الواقع الفكري والثقافي الجديد بكلّ أشكاله وطروحاته ومستوياته؟؟.

أقول: يُسمّى علماً بحسب منطق صاحبه الذي يؤمن به، ولكن لا يقدّسه المنطق ولا يؤيّده العقل الإسلاميّ -أو لا يؤيّد بعضه- لعدم انسجامه مع جوهر العقيدة الإسلامية.

ثم إنّ هذا المنع لا يتنافى مع حرية الفكر في التتبّع والاطّلاع على ما يحفل به الواقع الاجتماعي والفكري من معارف وعلوم وثقافات، إذ أنّ التحذير من الحركات الفكرية المتنوّعة لا يعني أن لا نتعلم أو نستفيد من محاسن وإيجابيات الآخرين، وإنّما يعني أنّ علينا أنْ نحرص على ثقافتنا وعلومنا ومعارفنا أن لا تذوب وتتلاشى في ما نكسبه منهم.

---

(١) أبو الفتح الآمدي ـ غرر الحكم: ٥٣٥

(٢) أبو الفتح الآمدي ـ غرر الحكم: ٦٨٦٩

وإنْ كان هناك فريق من علمائنا يتبنّى خطّ الانغلاق المطلق والعزلة التامّة عن أيّ شكلٍ من أشكال التعامل مع التيارات والحركات الفكرية الأخرى، لأنّه يمثل لوناً من ألوان الموادّة والموالاة التي نهى عنها القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ۞ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ

(١) المجادلة: ٢٢

(٢) آل عمران: ٢٨

﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1].

بينما هناك من يرى ضرورة الانفتاح السياسي على هذه الحركات، لأنّ ما نهى وحذّر منه القرآن الكريم هو الموادّة القلبية، التي تعني الاندماج بين التابع والمتبوع في الفكر والسلوك، والاعتراف بشرعية المضمون الفكري والعملي الذي تتبنّاه تلك الحركات، لا مجرّد الاعتراف بالوجود الذي يعني أنّ هذه الحركات الفكرية قد يكون لها وجود فاعل في الساحة الاجتماعية فيما تفرضه ظروف التعايش من المشاركة معها في بعض الأهداف والغايات.

فلا ضير - يا ولدي - في أنْ تأخذ من ثقافة الآخرين بشرط أن تمتلك حرية الاختيار، وتكون لك القدرة على الهضم فتأخذ ما ينفعك ولا تترك آلية تلك الحركات الفكرية تتحرّك وتستفحل على ساحة ضعفك، بل لابدّ من ابتكار الموقف الحازم لتفادي أيّ خطر يستهدف الأبعاد الفكرية والعملية والأخلاقية لشخصيّتك، حيث ينبغي إخضاع هذه الحريّة الفكريّة للمقياس العلمي الدقيق، لكي لا يتأثّر فكرك بكلّ

---

(١) آل عمران: ١١٨ - ١١٩

ما تتلقّاه، وتسلّم بكلّ ما تقرأ وتسمع، بل عليك - في نطاق هذه الحرية- أنْ تتّبع أحسنه وتختار أنفعه وأجداه إلى خدمة حضارتك.

ولنقرأ ما جاء عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، في خطابه لهشام بن الحكم قائلاً: «**يا هشام، إنّ الله تبارك وتعالى بشّرَ أهل العقل والفهم في كتابه،فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾** - الزمر: ١٧-١٨»[1].

أي: عليك - يا ولدي - أنْ تلتزم الاستقلالية والدقّة من أجل تحرّي المنبع النقيّ الذي تنهل منه علومك ومعارفك، كما تتحرّى المصدر النقي لمطعمك ومشربك، لتحرز الصحّة والسلامة في فكرك وروحك، كما تودّ أنْ تحرز الصّحة والسلامة في بدنك، وأنْ تطمئنّ من سلامة كلّ فكرة تُلقى إليك، كما تطمئنّ منْ سلامة طعامك وشرابك.

لذا جاءت النصوص الإسلاميّة، لترشدك إلى مرفأ الهدى والسلام، ومصدر الخير والصلاح، ومنهل العطاء، وإلى المنبع الحقيقي للعلم والمعرفة.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة**

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ١ / ١٢٢

لو اقتبستم العلم من معدنه، وشربتم الماء بعذوبته، وادّخرتم الخير من موضعه، وأخذتم من الطريق واضحه، وسلكتم من الحقّ نهجه، لنهجت بكم السبل وبدت لكم الأعلام، وأضاء لكم الإسلام، فأكلتم رغداً، وما عال فيكم عائل، ولا ظلم منكم مسلم ولا معاهد»[١].

وعنه عليه السلام: «من كان من شيعتنا عالماً بشريعتنا وأخرج ضعفاء شيعتنا من ظلمة جهلهم إلى نور العلم الذي حبوناه به جاء يوم القيامة وعلى رأسه تاج من نور يضيء لأهل جميع تلك العرصات وعليه حلّة لا يقوّم لأقلّ سلك منها الدنيا بحذافيرها ثم ينادي منادٍ من عند الله: يا عباد الله هذا عالم من بعض تلامذة آل محمّد ألا فمن أخرجه في الدنيا من حيرة جهله فليتشبّث بنوره ليخرجه من حيرة ظلمة هذه العرصات إلى نزه الجنان فيخرج كلّ من علّمه في الدنيا خيراً، أو فتح عنه من الجهل قفلاً أو أوضح له عن شبهة»[٢].

وجاء في تأويل قوله تعالى: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ عن الاحتجاج: عن أبي حمزة الثمالي، عن الباقر عليه السلام في حديث قال: «وقوله تعالى: ﴿وقدّرنا فيها السير﴾ فالسير مثل للعلم، سيروا به

(١) العلامة المجلسي ـ بحار الأنوار: ٢٨ / ٢٤٠.
(٢) تفسير الإمام العسكري: ح / ٢١٥ ص: ٣٢٩

﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ مثل لما يسير من العلم في الليالي والأيّام عنّا إليه من الحلال والحرام والفرائض والأحكام ﴿آمِنِينَ﴾ فيها إذا أخذوا من معدنه الّذي أُمروا أن يأخذوا منه ﴿آمِنِينَ﴾ من الشكّ والضلال»[1].

فاعلم - يا ولدي - أنّ العلم الذي يؤخذ من أصوله ومعادنه، هو غذاء الروح وعتاد الفكر، وهو النور الهادي إلى الله عزّوجلّ، وهو الذي يضيء ظلمات النفس، لكونها السلطة والمملكة التي تأتمر بها كلّ الأعضاء والقوى البدنيّة، وتتحرّك بها كلّ النشاطات الإنسانية، وكما قال الشاعر الحكمي في هذا الصّدد:

هــذّب الـنـفـس بـالـعـلـوم لـترقـى
وتــرى الـنـور فـهـي لـلـكـلّ بيت
إنّــما الـنـفـس كـالـزّجـاجـة والعقـ
ـــل سراجٌ وحـكـمـةُ الله زيـت
فـــإذا أشرقـــت فـــإنّـــك حـيٌّ
وإذا أظـلـمـت فـإنّـك ميْـت

لذا فإنّ العلم هو الطريق الذي دعا الإسلامُ إلى طلبه كلَّ مسلم ليتحرّك على بصيرةٍ منْ أمره، ويتصرّف بمعرفة ووعي في كلّ شأن من

---

(١) الشيخ علي النمازي ـ مستدرك سفينة البحار: ١ / ٢٢٢.

شؤون الحياة.

كما عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**من استعان بالعقل سدّده - من استرشد بالعلم أرشده**»(١). وعنه عليه السلام: «**بالعلم يُطاع الله ويُعبد، بالعلم يُعرف الله ويُوحّد، بالعلم توصل الأرحام، وبه يُعرف الحلال والحرام، والعلم إمامُ العقل والعقل تابعه، يُلهمه اللهُ السعداء، ويحرمه الأشقياء**»(٢).

وجاء عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قوله: «**العامل على غير بصيرة كالسّائر على غير الطريق، لا تزيده سرعةُ السّيْر إلا بعْداً**»(٣).

وقد عبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ضرورة طلب العلم، وحتمية التعلّم - على سبيل النجاة - بقوله: «**طلب العلم فريضةٌ على كلّ مسلم ومسلمة**»(٤). وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة**»(٥).

وما نستوحيه - يا ولدي - منْ هذا النصّ وغيره من النصوص: أنّ بالعلم يستطيع الإنسان أن يتحرّك في مجاهل الطرق، ويبصر به طريقه

(١) أبو الفتح الآمدي ـ غرر الحكم: ١ / ٢٨٤.
(٢) محمّد الريشهري - ميزان الحكمة: ٣ / ٣٦٠.
(٣) العلامة المجلسي ـ عين الحياة: ١ / ٢٦٩.
(٤) مجموعة ورام ـ تنبيه الخواطر ٢ / ١٧٦.
(٥) أمالي الصدوق ح / ٥٨ / ٩.

إلى مرضاة الله عزّوجلّ، من خلال تطبيق أحكامه وضوابط رسالته على كلّ شأن من شؤون حياته، وبذلك تكون العاقبة الجنّة.

كما نستوحي ذلك من كلمة الحراسة في كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لكميل: «**يا كميل العلم خيْرٌ من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال**»[1].

أي: أنّ العلم مصدر إشعاع على حياتك، يحرسك من الآفات والحركات الفكريّة الضالّة، ويرشدك إلى سبيل النجاة، فهو عامل هداية ورشاد، ومصدر توجيه وتهذيب لحركتك الفكرية والعمليّة في كلّ مجالات الحياة، وأنت تحرس المال ليس فقط من سطوة اللصوص والسرّاق فقط، لأنّ صاحب المال يحرس ماله ويحرص على حفظه على كلّ حال، حتى لو كان أجهل الجهلاء.

ولكنّ الأهمّ هو: أنْ يحرسه من مداخل الحرام والشبهة، وذلك من خلال الوعي والمعرفة بهذه المداخل، واتّباع مسالك التهذيب والإرشاد إلى سلوك الطرق الشرعيّة التي بها يهتدي إلى كيفيّة الكسب والصّرف.

وفي حديثٍ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه خشية -أو حسنة-، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه**

(١) محمّد الريشهري - ميزان الحكمة: ٢ / ٢٦١.

مَنْ لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنّه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة»[١].

*****

(١) كشف الظنون: ١ / ١٨.

ولادة الحوزة العلمية

إعلم - يا ولدي - أنّ للحوزة العلميّة جذوراً عتيدة تمتدّ في أعْماق التأريخ، وولادة جديدة تتقدّم مع تقادم الزمن، وتنمو مع نموّ الحياة، وتتماشى مع متطلّباتها الفكرية والعملية.

أمّا جذورها العتيدة:

فهي في فكر أهل البيت المعصومين عليهم السلام، حيث تمتدّ تلك الجذور في أعْماق التأريخ الإسلامي، الذي ازدهر تحت رعاية الرّسول الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله الذي جذّر العلم والحكمة -أوّلاً- في فكر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي قال:

«علّمني رسول الله ألف باب من العلم يتشعّب لي من كلّ باب ألف باب»[1] إذ تتفرّع مدرسته عليه السلام لتغطّي كلّ المساحات الزمنيّة والمكانيّة، ويخلد عطاؤها الفكري في حياة الأمّة إلى أبعد مديات التأريخ، ويبني وجودها بالهدى والاستقامة.

---

(١) العلامة المجلسي ـ بحار الأنوار: ١٤ / ٤١١

وقد ألقى رسول الله ﷺ في مسمع التاريخ شهادته على هذه الحقيقة الخالدة بقوله: «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها فمن أراد مدينة العلم فليأتها من بابها**»[1].

وامتدّت جذور هذه المدرسة في تطوّرها ونموّها التأريخي، إلى العصر العلمي الزاهر الذي قاده الإمام الصّادق عليه السلام، حيث تسنّت له الفرصة أن يؤسّس مدرسته العلميّة الواسعة بكافة الاختصاصات العلميّة، وأنْ يعدّ نخبة من العلماء والمحدّثين، وروّاد الفكر الإسلامي، لإحياء ما دثرته الظروف المعقّدة من تراث علمي ضخم، ومن مبادئ وقواعد وأحكام الشريعة الإسلامية.

فانتشر تلامذة الإمام الصادق عليه السلام في بقاع البلاد الإسلامية، وكان منهم تسعمائة شيخ - أي أستاذ - يرتادون إلى مسجد الكوفة، كلٌّ يقول: حدّثني الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

وأمّا ولادتها الجديدة:

فإنّها ولدت من رحم المأساة والمحنة، حيث كان المنشأ الجديد لهذا البناء، على أثر الحادثة التأريخية المأساوية التي أحاطت بالشيخ الطوسي قدس سره المولود في مدينة طوس سنة (٣٨٥) والمتوفّى سنة (٤٦٠هـ)،

(١) الحراني - تحف العقول: ص: ٧.

بعد وفاة الشيخ الصدوق رحمه الله بأربع سنوات.

كان الشيخ الطوسي رحمه الله قد قدم إلى بغداد سنة ٤٠٨ وعمره ٢٣ سنة، فتتلمذ على يد الشيخ المفيد رحمه الله ولازمه مدّة طويلة من الزمن، وبعد وفاة الشيخ المفيد تتلمذ على يد السيد المرتضى قدس سره.

فأقام في بغداد بعد وفاة السيد المرتضى سنة ٤٣٦هـ، واستقلّ بالزعامة الدينية هذه المدّة، فجعل له خليفة عصره (القائم بأمر الله) كرسيّ الكلام، وإدارة الحوارات العلمية، والمناظرات الفكريّة.

حتى اتّسعت في زمانه الفتن، واشتدّ البلاء على الشيعة، من قبل الملك الأوّل من ملوك السلاجقة، وهو (طغرل بيك)، إذ لا يروق للسلطات الظالمة أن يروا ازدهاراً للزعامة الدينية في الأوساط الاجتماعية خشيةً على مراكزهم ومواقعهم السياسية.

واتّجهت تلك الفتنة نحو الشيخ رحمه الله، إذ تمادى خصومه في التحريض عليه، وأوغلوا في إيذائه، فأحرقوا داره ومكتبته في الكرخ ببغداد، مع ما تمّ إحراقه في أماكن أخرى من مكتبات الشيعة العظمى.

ومن المكتبات التي أحرقت هي المكتبة التي أسّسها (أبو نصر سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهي) وكانت تضمّ ما يزيد على

عشرة آلاف من نفائس الآثار.

وعلى أثر هذه الحادثة المأساوية، غادر الشيخ بغداد متوجّهاً إلى النجف الأشرف سنة ٤٤٨هـ، فكان أوّل من أسس الحوزة العلمية، وأرسى قواعد البناء الجديد في هذا البلد المقدّس، لتكون منطلقاً للفكر، وأساساً للإبداع والتجديد العلمي على مرّ التأريخ وتقادم الزمن.

إنّ هذا الحدث التأريخي المشهور -يا ولدي- يحمل دلالة على أنّ الموقف الخالد والأثر الممجّد، يولد غالباً في خضمّ المحنة، ويكبر من خلال مقارعة أمواجها العاتية، كما هو معهود من مسيرة التأريخ الحثيثة، وعلى مستوى كلّ الخطوات التي خطتها رسالة الإسلام، وبلورها أهل البيت عليهم السلام بجهدهم وجهادهم وصبرهم.

فقد اقتضت سنّة التأريخ أن تكون الإشراقات والمعطيات والآثار الخالدة - دائماً - وليدة الظروف الصعبة، وربيبة الصبر والجهاد والمجالدة ضدّ القوى العاتية والظالمة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ...﴾[1]. **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ**

(١) البقرة: ٢١٤

الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[١]. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[٢].

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**البلاء زينٌ للمؤمن، و كرامةٌ لمن عقل، لأنّ في مباشرة الصبر عليه والثبات عنده تصحيح نسبة الإيمان، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: نحن معاشر الأنبياء أشدّ الناس بلاءً، والمؤمنون الأمثل فالأمثل، ومن ذاق طعم البلاء تحت سرّ حفظ الله له تلذّذ به أكثر من تلذّذه بالنعمة، واشتاق إليه إذا فقده، لأنّ تحت ميزان البلاء والمحنة أنوار النعمة**»[٣].

ولذلك - يا ولدي - ترى أنّ تألّق العلماء المجتهدين والمحقّقين، ونبوغ مراجع التقليد والفضلاء، كان غالباً من بين ثنايا المحن، وقبضة المصاعب، وضنك الابتلاءات الشّديدة، التي كانت تعصف بالحوزة العلمية بين حين وآخر، على مرّ القرون من الزمن.

وخصوصاً في العقود الزمنيّة المتأخّرة، التي تعايشنا معها ورأينا كيف تعاقبت فيها السلطات الظالمة على هذا البلد، فبقيت الحوزة

---

(١) آل عمران: ١٤٢

(٢) محمد: ٣١

(٣) مصباح الشريعة: ١ / ٧٩.

العلميّة قائمة وثابتة، تحفّها عناية الله عزّوجلّ، وتحتضنها الأنفاس المباركة لباب مدينة العلم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

بل كان لهذه الأنفاس الأثر والفضل والبركة على غيرها من الحوزات العلمية في العالم الإسلامي، ومنها الحوزة العلمية في قم المقدسة على يد مؤسّسها الشيخ عبد الكريم الحائري قدس سره.

«وقد ساعد آية الله الحائري على إنجاح هذا المشروع، وصول بعض علماء العراق إلى إيران، حيث نفتهم الحكومة العراقية وبأمر من المستشار البريطاني في بغداد، وكان وصول هؤلاء المراجع سنة ١٣٤١هـ، أمثال الشيخ مهدي الخالصي، والسيد أبي الحسن الأصفهاني، والميرزا محمد حسين النائيني، والسيد علي الشهرستاني، والسيد عبد الحسين الحجّة، لهم الأثر الكبير في تعزيز مكانة الشيخ الحائري، وتشييد الحوزة العلمية فيها.

وبالخصوص لمّا تولّى السيد أبو الحسن الأصفهاني، والميرزا محمد حسن النائيني مهمّة التدريس وإلقاء البحوث على مستوى سطح الخارج على الطلاب»[1].

---

(١) الكليني والكافي: عبد الرسول الحائري: ١ / ٩٢.

الانتماء إلى الحوزة ماذا يعني؟

إعلم - يا ولدي - أنّ عمليّة الانتماء تشكّل أساس الاستقرار لدى كلّ فصيلة من فصائل الخليقة، إذ ما من كائن إلّا وهو يستند إلى مظهر من مظاهر الانتماء.

وإنّ أوضح مظاهر الانتماء تتمثّل في المجتمع الإنساني، حيث يجد كلّ إنسان في عملية الانتماء إلى قوم، أو إلى عشيرة، أو أسرة، أو جمعيّة، أو حزب، أنّه قد أحرز بهذا الانتماء أو ذاك، مركزًا لوجوده وضماناً لحقّه.

إلّا إنّ خير الانتماءات، وأقواها مرْكزاً، وأشدّها ركناً، هو الانتماء إلى الله عزّوجلّ، والاندراج في حزبه، والتخندق في ميْدان طاعته، كما جاء في دعاء الإمام علي بن الحسين السّجاد عليه السلام:

«اللهمّ اجعلني من جندك فإنّ جندك هم الغالبون، واجعلني من حزبك فإنّ حزبك هم المفلحون، واجعلني من أوليائك فإنّ أولياءك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، وذلك بالانتماء إلى رسالته الغرّاء، رسالة الإصلاح والتغيير الاجتماعي، التي لا تتحرّك إلّا بالعلم والمعرفة.

ولا يتمّ ذلك إلّا بالانتماء إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام العلميّة، التي من أهدافها الرئيسيّة: تنمية العقيدة وبناء الفكر، وإعْداد الشخصيّة العلميّة المتحرّكة في واقع الأمّة باتّجاه الإصلاح والتربية والتغيير.

واعلم - يا ولدي - أنّ كلمة الانتماء، تختزن في أعماقها مدلولين كبيرين، يرتبطان بأهمّ الصفات التي ينبغي توافرها في الشخصيّة الإسلامية القياديّة، ذات الانتماء إلى هذه المؤسّسة، وهذان المدلولان هما:

*****

المدلول الأوّل: القوّة

وتعني القوّة - يا ولدي -: قوّة الشخصيّة وهيبتها بما تمتلك من عدّة ربّانية، لأنّ الإنسان الذي ينتمي إلى هذه المدرسة العلمية، إنّما ينتمي إلى باحةٍ رحبة من رحاب الله عزّوجلّ، ويتمسّك بعروة من عرى رسالته الوثيقة، ويستند إلى ركن من أركان دينه، فيستمدّ منه موقعه وهيبته، ويستلهم منه قوّته وحركته.

دخل قتادة على الإمام أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام فلمّا مثل بين يديه، أخذته الرّعدة، وأحسّ باضطراب شديد من هيبة الإمام عليه السلام، فقال حينذاك: يا ابن رسول الله، لقد جلست كثيراً بين يدي العلماء، لكنّي لم أضطرب مثلما اضطربت بين يديك؟.

فقال عليه السلام: «**هل تعلم بين يدي من أنت؟ أنت بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبّح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله**»[1].

---

(١) الشيخ الكليني ـ فروع الكافي: ٦ / ٢٥٦.

نستوحي من هذه الكلمة: أنّ البيوت التي أذن الله أنْ ترفع، هي بيوت العلم، التي ترمز إليهم عليهم السلام، لأنّهم المثل اللامع لتلك البيوت التي رفعها الله تعالى، لأنّهم شيّدوها بالعلم والتقى والطاعة، فاستمدّت قوّتها ورفعتها وهيبتها منهم عليهم السلام.

ثم لا تنسَ - يا ولدي - ما جاء عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «**إذا أردت عزّاً بلا عشيرة وهيبةً بلا سلطان فاخرج من ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعته**»[1].

فكان من أصدق مصاديق هذه العزّة والهيبة، هي شخصيّة العالم، الذي من مستلزمات علمه، أنّه لا يهاب ولا يخشى أحداً إلّا الله عزّوجلّ، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[2]، ومن خشي اللهَ تعالى خشيه كلُّ من في الأرض.

ذُكِرَ عن العالم الرّباني السّيد محمّد باقر الشفتي -رحمه الله- المتوفّى سنة ١٢٦٠هـج، أنّه كان كثير البكاء من خشية الله تعالى ولمصائب أهل البيت الطاهر عليهم السلام، ولمكانته في قلوب الناس وتأثيره في نفوسهم، حاول حاكم زمانه أن يتخلّص منه، فأنفذ له أربعة من المرتزقة لقتله.

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٤٤ / ١٢٩.

(٢) فاطر: ٢٨

وفي ليلة ظلماء حاول أولئك المرتزقة، أن يتسلّقوا الجدار للدّخول إلى دار السّيد﵀ لتنفيذ العمليّة، وكان السيد آنذاك جالساً على سجادة الصلاة في ساحة الدار، يقرأ الدّعاء تحت ضوء خافت.

فسدّد أحد المرتزقة سلاحه إلى صدره من خلف شجرة وأوشك أن يرميه، لكنّه سرعان ما ارتعدت فرائصه لهيبته، ولم يستطع السيطرة على سلاحه، فسقط السّلاح من يده وانصرف.

فتناوله الآخر وحاول أن ينفّذ الجريمة، فأخذت هيبته في نفسه فسقط السّلاح من يده وانصرف كذلك، وهكذا أخذت هيبة السّيد الشفتي تسيطر على نفوس هؤلاء، ممّا أدّى إلى فشل العمليّة، وبالتالي دفعهم ذلك إلى التوبة والهداية على يديه) انظر كتاب قصص وخواطر للشيخ عبدالعظيم البحراني.

ولا ننسى ما جاء عن رسول اللهﷺ قوله: «**العالم إذا أراد بعلمه وجْه الله تعالى هابه كلُّ شيء، وإذا أراد أنْ يكنز به الكنوز هاب منْ كلِّ شيْء**»[1].

وعن أبي عبد الله الصادق﵇ قال: «**من خاف اللهَ أخاف اللهُ منه**

---

(١) المتقي الهندي ـ كنز العمال: ح / ٢.

كلَّ شيء ومن لم يخف اللهَ أخافه اللهُ من كلِّ شيء»[١].

شبهة وجواب:

فقد كنت يوماً من الأيام بصدد هذه القصّة التي حدثت للسيد محمد باقر الشفتي - قدّس سرّه- أمام جمع من الناس، فسأل أحدهم قائلاً:

إذا كان السيد الشفتي - قدّس سرّه - قد خافه أولئك النفر الذين أرادوا قتله، وارتعدوا هيبةً وامتنعوا عن قتله، فهل كان أفضل من عليّ والحسين عليهما السلام وغيرهما من أئمّة الهدى عليهم السلام الذين قضوا بين قتيل بالسّيف وآخر بالسمّ؟!. فكان الجواب:

أوّلاً: إنّ حياة الأئمّة الأطهار عليهم السلام وغيرهم من الشهداء، قد خُطِّط لها تخطيطٌ ربّانيّ، حيث اقتضت مصلحة الرّسالة والأمّة، أن يقضي هؤلاء القادة بهذه الأسباب، بعد أن أدّوا رسالتهم.

بل كان من الحتم، أنّ أداء الرّسالة لن يتمّ إلّا بالتضحية والشهادة والدم، وكما قال عزّوجلّ: **﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾**[٢]،

(١) الشيخ الطبرسي - مشكاة الأنوار: ١ / ٩٠.
(٢) التوبة: ١١١

لما يترتّب على ذلك من المصالح العظمى والآثار الكبرى.

وليس معنى هذا أنّهم ليست لهم كرامات تتقدّم على القضاء المحتوم الذي جرى عليهم، فهناك الكثير ممّا هو مذكور في محلّه من المواقف التي دفع الله عزّوجلّ عن النبي وآله الطاهرين صلوات الله عليهم كثيرًا من الغوائل والمكائد التي كان يتربّص بها لهم أعداؤهم، فلم تقضِ الإرادة الربّانية بالمصلحة التي تكون فيها خاتمة حياتهم، لأنّهم موعودون لأمرٍ خُطّ بالقلم.

وهنا لو اقتضى الأمر من السيد الشفتي قدس سره وكان في قتله بهذا الحدث أو ذاك مصلحة للإسلام والأمّة، لحقّق الله عزّوجلّ ذلك فيه، ولمضى مثلما مضى الكثير من العلماء والأولياء والصالحين في ركب التضحية والشهادة.

ثانياً: إنّ كلّ الذين قدموا إلى قتل الأئمّة المعصومين الأطهار عليهم السلام، ونفّذوا جرائمهم فيهم، لم يكونوا بشرًا إلّا في صورة اللحم والدّم، فإنّهم ممّن مُسِخوا عن البشريّة في واقع الأمر، ولم يتركوا لأنفسهم خطّاً للرجوع إلى الله عزّ وجلّ فسلب منهم توفيقه، ولم يجعل الله عزّوجلّ في قلب أحدٍ منهم ذرّة من الرّحمة والإنسانية قطّ، لتكون مرجعاً للتوبة.

ولو علم الله عزّوجلّ فيهم خيراً لفتح مسامع قلوبهم للتوبة

والإنابة إليه بكرامات الأئمّة والأولياء، ولكن لم تجد المعاجز والخوارق كما لم تجد الكرامات أرضيّةً خصبة في نفوس أولئك المجرمين لتكون رادعاً لهم وسبباً إلى هدايتهم كما في قصّة السيد الشفتي- قدّس سرّه -.

إذ أنّ مَنْ يهاب مقام الأولياء، ويخشى عظمة المقرّبين، هم مجموعة من الناس الذين تُرتجى لهم صحوة الضمير بحالٍ من الأحوال، وإنْ تغلّفت فطرتهم، وتعتّمت أحاسيسهم، لذا فإنّ ردّة الفعل التي حدثت في أنفسهم فتابوا وأنابوا الى ربّهم، هي دليلٌ على وجود بقايا من وميض الفطرة الإنسانية.

*****

المدلول الثاني: المسؤوليّة

بمعنى كون الإنسان مسؤولاً -بحكم هذا الموقع، وبحكم انتمائه إلى هذه المؤسّسة العلميّة- أن يتحرّك بهذه الرّسالة في نفسه وفي فكره، وفي سلوكه وقوله، وفي كلّ مجالات حياة الأمّة وشؤونها.

وأن يكون صادقاً وأميناً على ما استودعه الله تعالى واستحفظه من أمانة العقل، والحقّ، والتبصرة والفهم، وأن يكون معطاءً باذلاً للخير والعلم، ومذكِّرًا بالله والآخرة.

فكما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون في الموقع والقدر والمنزلة، فإنّهم كذلك لا يستوون في حمل المسؤولية، وفي تحمّل العقوبة على التقصير والخيانة لهذه الأمانة.

عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**إذا ظهرت البدع ولعن آخرُ هذه الأمّة أوّلها، فمن كان عنده علمٌ فلينشره، فإنّ كاتم العلم يومئذٍ ككاتم ما أنزل الله على محمد**»[1].

---

(١) محمّد الريشهري - ميزان الحكمة: ١ / ٢٥١

وقال ﷺ: «علماء هذه الأمة رجلان: رجلٌ أتاه الله علماً فطلب به وجه الله والدار الآخرة، وبذله للناس، ولم يأخذ عليه طمعاً، ولم يشترِ به ثمناً قليلاً، فذلك يستغفر له من في البحور، ودوابّ البرّ والبحر، والطير في جوّ السماء، ويقدم على الله سيداً شريفاً، ورجلٌ أتاه الله علماً فبخل به على عباد الله، وأخذ عليه طمعاً، واشترى به ثمناً قليلاً، فذلك يُلجم يوم القيامة بلجامٍ من نار»[1].

وعنه ﷺ قال: «أوحى الله إلى بعض أنبيائه: قل للذين يتفقّهون لغير الدين، ويتعلّمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا لغير الآخرة، يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسل وأعمالهم أمرّ من الصبر: إيّاي يخادعون؟ وبي يستهزؤون؟ لأتيحنّ لهم فتنة تذر الحكيم حيراناً»[2].

ثمّ لبيان عظم المسؤولية التي أُلقيت على حَمَلَة العلم في التصدّي لسلبيات الواقع، وما تفرزه هذه السلبيات من ارتباك وتخبّط في حياة الأمة، ولما يهدّدها من الضلال والضياع، ترى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ينطلق من خلال جسامة المسؤولية، ليعمّمها على العلماء الامتداد،

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٢ / ٣٧.

(٢) العلامة المجلسي - بحار الانوار: ١ / ٢٢٤

لأجل أن يكونوا بمستوى هذه المسؤولية.

فقال عليه السلام: «أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقارّوا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أوّلها»[1].

وقال عليه السلام: «ما أخذ الله سبحانه على الجاهل أن يتعلّم حتى أخذ على العالم أن يُعلِّم»[2].

وقال عليه السلام: «من كان من شيعتنا عالماً بشريعتنا، فأخرجَ ضعفاء شيعتنا من ظلمة جهلهم، إلى نور العلم الذي حبوناه به، جاء يوم القيامة وعلى رأسه تاج... إلى أن قال:

ألا فمن أخرجه في الدنيا من حيرة جهله، فليتشبّث بنوره ليخرجه من حيرة ظلمة هذه العرصات إلى نزهة الجنان، فيخرج كلّ من كان علمه في الدنيا خيراً، أو فتح عن قلبه من الجهل قفلاً، أو أوضح له عن شبهة»[3].

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٢٨ / ٢٤٦.

(٢) عيون الحكم والمواعظ - علي بن محمد الليثي: ١ / ٢٤١.

(٣) الميرزا النوري - مستدرك وسائل الشيعة: ١٧ / ٢٥١ .

ما بين المنهج الحوزتي والأكاديمي؟

بما أنّك - يا ولدي - قد تتقدّم للانتماء إلى الحوزة العلمية من أجل طلب العلم، بعد تجربتك الأكاديمية، وأنت لا تمتلك صورة عن الطريق الذي ستسلكه في الحوزة العلمية، فعليك إذن أنْ تعرف معالم هذا الطريق، والفرق بينه وبين المنهج الأكاديمي.

فاعلم أنّ منهج الحوزة العلمية يشترك مع المنهج الأكاديمي في الأهميّة العلميّة، ويختصّ الفقه بالأهمية العمليّة.

إذ كما لا نستهين بالعلوم والمعارف العامّة، التي تندرج في نطاق المنهج الأكاديمي المعروف، كالفيزياء، والكيمياء، والأحياء، والرّياضيات، والهندسة، والطب، والفلك، والطبيعة، وغيرها من الاختصاصات والعلوم التي تحتاجها الأمّة للالتحاق بعجلة التقدّم والتطوّر الحضاري والتكنلوجي.

فإنّنا بحاجة أكبر إلى علم الفقه، والأصول، والتفسير، واللغة، والكلام، وغيرها من الاختصاصات والعلوم المندرجة في منهج الحوزة

العلمية.

بل تعتبر هذه العلوم في موقع الصدارة في الأهميّة العلميّة والعمليّة معاً، لأنّها منبثق النور والإشعاع على كافة المعارف والعلوم.

ولكن تبقى عليك -يا ولدي- معرفة عددٍ من الفوارق الجوهريّة بين المنهج الحوزتي والمنهج الأكاديمي، يحسن أن أعطيك عنها تصوّراً، وذلك في النقاط الآتية:

١- في طريقة التلقّي:

فإذا كان الطالب الأكاديميّ يدرس في مؤسّسة خاصّة، ويجلس على مقاعد خصّصت للجلوس بطريقةٍ منتظمة، وفي وقتٍ معيّن ومنتظم، فإنّك تجد الكيفيّة التي عليها طالب العلم الحوزتي ومنذ قرون من الزّمن، وفي جميع مراحل التلقّي العلمي، هي طريقة التحلّق البسيط حول الأستاذ.

حيث يجلس الأستاذ وسط طلّابه وهم يفترشون الأرض على بساطٍ متواضع في المسجد أو في أروقة الصحن الحيدري الشريف، أو حتى في موضع السكن عند البعض، فيتحلّق الطلاب حول أستاذهم للإصغاء والتلقّي لما يقدّمه من شرحٍ للمنهج المقرّر تدريسه بحكم

المرحلة التي فيها الطالب. وقد قطعت الحوزة العلمية - يا ولدي - مسيرة طويلة في تأريخها من خلال المسجد والأماكن الأخرى المتفرّقة، كما ثبت أنّ بعض العلماء كانت بيوتهم المتواضعة مدارس تُعقد فيها حلقات التدريس، وقد تخرّج من هذه البيوت المتواضعة الفطاحل من أساتذة الحوزة، والعلماء المبلِّغين.

وقد كان الاهتمام ينصبّ على المساجد لتكون مواقع يُطلب فيها العلم، لما لها من الفضل والشرف على سائر البقاع، كما عن رسول الله ﷺ أنّه قال:

«من اختلف إلى المساجد أصاب إحدى الثمان: أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمة، أو رحمة منتظرة، أو كلمة تردّه عن ردى، أو تدلّه على هدى، أو يترك ذنباً خشية، أو حياء»... (ومن مشى إلى المسجد، لم يضع رجله على رطب ولا يابس، إلا سبّحت له الأرض إلى الأرضين السابعة»[1].

ويبقى من الضروري - يا ولدي - أنْ يكون المسجد دائماً، موقعاً تنتهل منه العلم ما أمكنك، لتستوحي من خلال هذا الموقع معاني لها تأثيرها الإيجابي على مسيرتك العلميّة والعمليّة، وفي مقدّمة هذه المعاني

(١) أعلام الدين في صفات المؤمنين: ٢١ / ١٩.

المستوحاة ثلاثة معانٍ:

المعنى الأوّل: هو أن تبرهن من خلال المسجد، على اندماج العلم مع العبادة في وحدة متكاملة، كما كان تأريخ المسجد ودوره التربوي في عهد رسول الله ﷺ حيث كانت تدار الحلقات العلمية وصفوف الصلاة من هذا الموقع، ممّا يحتّم علينا أن نستثمر هذه العلاقة بين العلم والعبادة ونجعل منْ هذه البقاع المقدّسة منبع هدىً يضيء طريق الأمّة ويوقظها ويبصّرها بأحكام دينها في كلّ حركةٍ من حركاتها ونشاطها في مجالات الحياة، وأن لا تكون أبواقاً لخدمة العناوين والشخصيات والمصالح والغايات السياسية والاجتماعية الخاصّة.

وأن نؤكّد للأمة على ما ورد من الآثار التي وردت في فضل العلم على العبادة، لأنّ العلم هو روح العبادة، وعنصر حركتها وأثرها في واقع السلوك، كما قال رسول الله ﷺ: «**ركعتان يصلّيهما العالم أفضل من ألف ركعة يصلّيها العابد**»[1].

وقد روي أنّه ﷺ دخل المسجد فوجد قوماً يدعون الله ويتعبّدون، وآخرين يتدارسون العلم، فقال -ما مضمونه-: كلّ هؤلاء على خير، وهذا المجلس أحبّ إليّ من هذا، فجلس مع أهل العلم.

---

(١) الشيخ الصدوق ـ من لا يحضره الفقيه: ٤ / ٣٦٧.

المعنى الثاني: لأجل أن تستشعر من خلال المسجد قربك من الله عزّوجلّ في بيته، بأن تجعل ركعتي الصّلاة التي تصلّيها تحيّة لهذا الموقع وسيلةً لهذا القرب، تستلهم بها اليُمن والعناية، والتوفيق والسّداد باتّجاه الفهم لما تتعلّمه، لأنّ العبودية لله تعالى هي مفتاح الفهم.

ويسرّني - يا ولدي - أنْ أورد لك قصّةً شاملة يقدّم فيها الإمام أبو عبدالله الصادق عليه السلام لعنوان البصري صورة شاملة عن العوامل الروحية والطبيعية التي تساهم في إفاضة العناية والتوفيق الربّاني على طالب العلم.

كما قال الشيخ شمس الدين محمّد بن مكي: نقلت من خطّ الشيخ أحمد الفراهاني رحمه الله، عنْ عنوان البصري - وكان شيخاً كبيراً قد أتى عليه أربع وتسعون سنة - قال:

كنت أختلف إلى مالك بن أنس سنين، فلما قدم جعفر الصادق عليه السلام المدينة اختلفت إليه، وأحببت أن آخذ عنه كما أخذت عن مالك، فقال لي يوماً: إنّي رجلٌ مطلوب، ومع ذلك لي أوراد في كلّ ساعة من آناء الليل والنهار، فلا تشغلني عن وردي، وخذْ عن مالك، واختلف إليه كما كنت تختلف إليه.

فاغتممت من ذلك، وخرجت من عنده وقلت في نفسي: لو تفرّس

فيّ خيراً لما زجرني عن الاختلاف إليه والأخذ عنه، فدخلت مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلّمت عليه، ثم رجعت من الغد إلى الروضة وصلّيت فيها ركعتين، وقلت: «**أسألك يا الله يا الله أن تعطف عليّ قلب جعفر وترزقني من علمه ما أهتدي به إلى صراطك المستقيم**».

ورجعت إلى داري مغتمّاً ولم أختلف إلى مالك بن أنس لما أشرب قلبي من حبّ جعفر عليه السلام، فما خرجت من داري إلّا إلى الصلاة المكتوبة حتى عيل صبري، فلمّا ضاق صدري تنعّلت وتردّيت وقصدت جعفراً عليه السلام، وكان بعدما صلّيت العصر.

فلمّا حضرت باب داره استأذنت عليه، فخرج خادمٌ له فقال: ما حاجتك؟ فقلت: السلام على الشريف، فقال: هو قائم في مصلّاه، فجلست بحذاء بابه، فما لبثت إلّا يسيراً إذ خرج خادمٌ فقال: ادخل على بركة الله، فدخلت وسلّمت عليه، فردّ السلام، وقال: اجلس غفر الله لك.

فجلست، فأطرق مليّاً ثم رفع رأسه، وقال: أبو من أنت؟ قلت: أبو عبدالله، قال: ثبّت الله كنيتك ووفّقك، يا أبا عبدالله، ما مسألتك؟.

فقلت في نفسي: لو لم يكن لي من زيارته والتسليم غير هذا الدعاء لكان كثيراً، ثم رفع رأسه، ثم قال: ما مسألتك؟ فقلت: سألت الله أن

يعطف قلبك عليّ ويرزقني من علمك، وأرجو أنّ الله تعالى قد أجابني في الشريف ما سألته.

فقال: «يا أبا عبدالله ليس العلم بالتعلّم، إنّما هو نورٌ يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه، فإنْ أردت العلم فاطلبْ أوّلاً في نفسك حقيقة العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يُفهمْك) قلت: يا شريف، فقال عليه السلام: قل يا أبا عبدالله.

قلت: يا أبا عبدالله ما حقيقة العبودية؟ قال: ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً، لأنّ العبيد لا يكون لهم ملكٌ يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به، ولا يدبّر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله فيما أمره تعالى به ونهاه عنه.

ثم انظر - يا ولدي - كيف يواصل الإمام الصادق عليه السلام في بيان النتائج التي تترتّب على هذه الأشياء فيقول:

(فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوّله الله تعالى ملكاً هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالى أنْ ينفق فيه، وإذا فوّض العبد تدبير نفسه على مدبّره هان عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرّغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس.

فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هان عليه الدنيا وإبليس والخلق، ولا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً ولا يطلب ما عند الناس عزّاً وعلوّاً، ولا يدع أيّامه باطلاً، فهذا أوّل درجة التقى قال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قلت - والكلام لعنوان البصري -: يا أبا عبدالله أوصني، قال عليه السلام: **أوصيك بتسعة أشياء فإنّها وصيّتي لمريدي الطريق إلى الله، والله أسأل أن يوفّقك لاستعماله: ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم، فاحفظها وإيّاك والتهاون بها**، قال عنوان: ففرّغت قلبي له، فقال:

أمّا اللواتي في الرياضة: فإيّاك أن تأكل ما لا تشتهيه، فإنّه يورث الحماقة والبله، ولا تأكل إلّا عند الجوع، وإذا أكلت فكلْ حلالاً وسمِّ الله، واذكر حديث الرسول صلى الله عليه وآله: ما ملأ آدميّ وعاءً شرّاً من بطنه، فإن كان ولابُدّ فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفسه.

وأمّا اللواتي في الحلم، فمن قال لك: إنْ قلت واحدة سمعت عشراً، فقل له: إنْ قلت عشراً فلا تسمع واحدة، ومن شتمك فقل له: إنْ كنت صادقاً فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي، وانْ كنت كاذباً فيما تقول فأسأل

الله أن يغفر لك، ومن وعدك بالخنى فعِدْهُ بالنصيحة.

وأمّا اللواتي في العلم فاسأل العلماء ما جهلت، وإيّاك أنْ تسألهم تعنّتاً وتجربةً، وإيّاك أنْ تعمل برأيك شيئاً، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلاً، واهربْ من الفُتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً، قم عنّي يا أبا عبدالله فقد نصحت لك ولا تفسدْ عليّ وردي، فإنّي امرؤ ضنينٌ بنفسي والسلام على من اتّبع الهدى»[1].

وكما رُوِي عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «**إنّ جلوسي في المسجد أحبّ إليّ من جلوسي في الجنة**» قيل: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال عليه السلام: «**لأنّ الجلوس في المسجد فيه رضا ربّي، والجلوس في الجنة فيه رضا نفسي ورضا ربّي أولى من رضا نفسي**»[2].

فقد كان إحساسه عليه السلام يتحرّك نحو رضوان الله عزّوجلّ فقط، بغضّ النظر عن الثواب، حتى في هذا الموقع الذي يطمح فيه الإنسان إلى نعيم الآخرة وثوابها.

فهكذا ينبغي أنْ يتحرّك فكرك وإحساسك وشعورك نحو الله عزّوجلّ، ليكون حبّه ورضاه عزّوجلّ، هو الغاية الأساسية، وهو

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار ١/ ٢٢٥- ٢٢٦.

(٢) فاطمة الزهراء (عليها السلام) سر الوجود: ٤ / ٦.

الهدف لكلّ حركة أو خطوة لك في طريق العلم.

المعنى الثالث: أن تستوحي -يا ولدي- من جوّ المسجد روح الورع والتقوى، هذه الرّوح التي لا ينبغي أنْ تفارق طالب العلم الحوزتي، وإلّا فلا يمكن أنْ تتكوّن الأمّة بالعلم وحده.

ولا يمكن للأمّة أن تعدّ شخصيّتها إعداداً صحيحاً، ولا تبني وجودها بناءً سليماً، ولا تهتدي إلى ما يصلح أمرها، ما لم يكن العالم المصلح، والموجّه، والمربّي لها ورعاً تقيّاً، ملتزماً بقيم رسالته التي درس وتعلّم منْ أجلها.

لذلك جاءت النصوص تشدّد على ضرورة انضباط طالب العلم بضوابط رسالته العلمية، وتحذّر العالم من خطر زلّته وانحرافه، الذي يعني انحراف الأمّة وضياعها في مجاهل الطرق.

قال رسول الله ﷺ: «**من ازداد علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلّا بعداً**»[1]، وكيف يُمكن للبعيد عن الله عزّوجلّ أنْ يقرّب الناس إليه؟، وفاقد الشيء لا يعطيه.

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**زلّة العالم كانكسار السفينة تَغرَق**

---

(١) مجموعة ورام ـ تنبيه الخواطر: ٢ / ٢١

وتُغرِق»[١]، أي: أنّه المركب الذي يُفترض به أنْ يوصل الأمّة إلى غايتها من الأمان والسلامة في كافة أنحاء السلوك والنشاط، ويُرسي سفينتها إلى ساحل النجاة منْ أمواج الفتن المضلّة، وعنه عليه السلام: «**زلّة العالم تُفسد عوالم**»[٢].

٢- في الغاية من طلب العلم:

المعروف - يا ولدي - أنّ الدّراسات الأكاديميّة غالباً ما تكون الغاية منها هي: الحصول على لقبٍ أو رمزٍ يرفع من مكانة الإنسان في نظر غيره من الناس.

فبالرغم من وجود الغاية التربويّة من تكوين الكوادر التدريسيّة المنتجة، من خلال المؤسّسات الأكاديميّة، إلّا أنّ الإنتاج الأكاديمي غالباً ما يصبّ في نطاق الواقع الفكريّ فقط، لا في نطاق الواقع السلوكيّ والاجتماعي.

غير أنّ الدّراسات الحوزتية، تصبّ في إعداد العالم المصلح، والأستاذ المغيِّر، والشخصية المؤثِّرة على ساحة الواقع.

وتنطلق حركة وجهود طالب العلم الحوزتي باتّجاه الخدمة،

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٢ / ٥٨

(٢) أبو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ح / ٥٤٧٢.

والوظيفة التبليغية من خلال ما نصّ عليه القرآن بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

فهنا ترسم لك الآية الهدف والغاية من الرّحلة لطلب العلم، وتجعلها رحلةً من أجل التفقّه في الدين، والوعي والتبصّر في أحكام الشريعة، ثم تبليغها للناس وتعريفهم ما لهم وما عليهم، بغية أن يكونوا على جانبٍ من الحذر عن المخالفة للواجبات، أو الوقوع في المحرّمات.

فأنت تدرس من أجل أن تعي ما تعلم، وتؤدّي مسؤوليّتك في الحياة، تلك المسؤوليّة الرّسالية الصّعبة والحسّاسة، التي نصّت عليها أحاديث أهل البيت الطاهر عليهم السلام.

فقرنت تلك النصوص بين العلم والعمل، وشدّدت على المنع عن اتّخاذ العلم لمجرّد الحديث به بين الناس، بل لابُدّ من وضعه علاجاً لأمراض الأمّة، والنهوض بها من واقع الجهل والتخبّط، إلى واقع العلم والوعي والإبداع في حركتها على كافة أصعدة الحياة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**همّة العلماء الوعاية، وهمّة السفهاء الرّواية**»[2].

---

(١) التوبة: ١٢٣

(٢) المتقي الهندي - كنز العمال: ح / ٢٩٣٣٧.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**كونوا للعلم وعاة، ولا تكونوا له رواة**»(١).

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**علم المنافق في لسانه، وعلم المؤمن في عمله**»(٢).

أي: أنّ هناك غاية أكبر وهدفاً أسمى في واقع حياتك، وهو أنْ تكون حركتك العلميّة، حركة تربويّة واعية في حياتك، لتستفيد من العلم دروس التغيير للواقع بالاتّجاه الحضاري النزيه، والالتزام الكامل في حياة الأمّة، لا لمجرّد الحديث به، أو التلذّذ بنقله على مسامع الناس، وعرضه كأقاصيص وحكايات خالية من استنتاج الآثار التربوية.

قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**تعلّموا ما شئتم أنْ تعلّموا، فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا به، لأنّ العلماء همّتهم الرّعاية، والسفهاء همّتهم الرّواية**»(٣).

بمعنى: أنّك - يا ولدي - إذا لم تضع في حسابك العلم لتعمل به، فلن ينفعك الله بهذا العلم، ولا يتنامى مضمونه وأثره في حياتك، حتى تقوّم به ما اعوجّ من السلوك لك ولغيرك.

---

(١) المتقي الهندي - كنز العمال: ح / ٢٩٣٣٥

(٢) محمّد الريشهري ـ ميزان الحكمة: ٢ / ٤١٧

(٣) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٢ / ٣٧.

وهنا يفترض بك أن تذوب في هذه المؤسّسة، وأن تمتلك كيانك ووجودك، وتحتلّ أعماقك، لا بالشكل والهيكل الخارجي، بل بالمعنى والمضمون الأكبر، والهدف الأعمق، الذي يتحرّك فيك، وتتحرّك أنت فيه في كلّ مجال من مجالات حياة الأمّة، لتضع العلاج حيث الحاجة إليه.

عن النبيﷺ: «**العلم وديعة الله في أرضه، والعلماء أمناؤه عليه، فمن عمل بعلمه أدّى أمانته، ومن لم يعمل بعلمه كتب في ديوان الخائنين**»[1].

وعن الإمام عليعليه السلام: «**طلبة هذا العلم على ثلاثة أصناف، ألا فاعرفوهم بصفاتهم وأعيانهم: صنف منهم يتعلّمون للمراء والجدل (الجهل)، وصنف منهم يتعلّمون للاستطالة والختل، وصنف منهم يتعلّمون للفقه والعمل.**

فأمّا صاحب المراء والجدل (الجهل) تراه مؤذياً مماريا للرجال في أندية المقال، قد تسربل بالتخشّع، وتخلّى من الورع، فدقّ الله من هذا حيزومه، وقطع منه خيشومه.

وأمّا صاحب الاستطالة والختل فإنّه يستطيل على أشباهه من أشكاله، ويتواضع للأغنياء من دونهم، فهو لحلوائهم هاظم، ولدينه

(١) محمّد الريشهري ـ ميزان الحكمة: ٧ / ٩٧.

حاطم، فأعمى الله من هذا بصره، وقطع من آثار العلماء أثره. وأما صاحب الفقه والعمل تراه ذا كآبة»[١]، طبعاً لأنّ ما يفكّر به هو مسؤولية التغيير التي يضطلع بها من خلال طلبه للعلم، بأن يجسّد قيمه المعرفية والعملية في حياة الأمّة.

وقال الإمام علي الهادي عليه السلام: «**لولا من يبقى بعد غيبة قائمنا عليه السلام من العلماء الداعين إليه، والدالّين عليه، والذابّين عن دينه بحجج الله، والمنقذين لضعفاء عباد الله من شباك إبليس ومردته، ومن فخاخ النواصب، لما بقي أحد إلّا ارتدّ عن دين الله**»[٢].

لذا كانت هذه المسؤولية التغييريّة الواعية في حركة العالم الرّسالي، هدفاً لمؤامرات وتحرّكات السلطات الظالمة، بغية الحدّ من حركة الإصلاح والتغيير الإسلامي في حياة الأمة.

فقد زرعت في طريق هذه الحركة، العقبات والأشواك على مرّ التأريخ، ومنذ العهد الأوّل لبزوغ الرّسالات السماوية.

وخصوصاً رسالة النبيّ الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بصفتها رسالة تغييريّة، تهدف إلى تكوين عقليّة علميّة حارسة للحقّ، منتجة للخير والعطاء،

---

(١) محمّد الريشهري - ميزان الحكمة: ٢ / ٣٨٨

(٢) نفس المصدر

على يد معلّمها الأوّل رسول الله ﷺ الذي قال: «**ما أوذي نبيّ مثل ما أوذيت**»[١].

وحتى هذا العصر المتأخّر من حياة الأمّة - يا ولدي - الذي تستمرّ فيه عجلة الأذى بالحوزة العلميّة، حيث جدّت خطى الكفر العالميّ في الحرب على الفكر والمفكّرين المسلمين، وراحت تعدّ الخطط، وترسم البرامج للقضاء على رجال العلم، سواء بالتصفيات الجسدية، أو بحملات التشويه والطعن، بهدف زرع الشكوك في نفوس أبناء الأمّة، وانتزاع ثقتهم بقيادتهم الروحية، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون.

ماذا تعني الألقاب المتعارفة؟

وبما أنّ الكلام لا يزال في الغاية من طلب العلم، كفرق من الفروق بين الطالب الحوزتي والطالب الأكاديمي.

فقد تسأل - يا ولدي -: إذا كان طالب العلم الحوزتي لا يسعى للحصول على الرّموز والألقاب كما عليه الطالب الأكاديمي، الذي يسعى للحصول على رمز أو لقب أو درجة تهيّئ له سبيلاً للرّفعة بين الناس، مضافاً إلى العائد المادّي الذي يتقاضاه على أساس هذا اللقب أو ذاك، فبماذا نفسّر تلك الألقاب التي تُمنح لرجال العلم بحسب مراتبهم

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٣٩ / ٥٦.

ودرجاتهم العلميّة، كالعلّامة، والحجّة، وآية الله، وغيرها؟؟.

فأقول: - يا ولدي - نظرًا لتكرّر هذا الاستفهام منك ومن غيرك، لا مانع من إعطائك تصوّرًا عن مدلول هذه الرّموز والألقاب، لعلّ في ذلك من فائدة، ولدفع ما يتوهّم: من أنّ العلماء يذوبون في مثل هذه الألقاب ويتفانون فيها، والجواب على ذلك بالتوضيح الآتي:

١- إذا لم تُمنح مثل هذه الألقاب والرّموز إلى رجل العلم فلمَنْ تُمنح؟، لا سيّما وأنّ كلمة (الحجّة) أو (آية الله) أو غير ذلك من الرّموز، ترمز إلى كلّ ظاهرة تحمل الدلالة على الله تعالى، وعلى عظيم قدرته وبالغ حكمته.

فهي - من بابٍ أولى - إنّما تعني: أنّ هذا العالم أو ذاك، هو من أبرز الشخوص والوجودات النافعة، التي ترشد إلى الله عزّوجلّ، وتدلّ على الحقّ، وتهدي إلى منهجه وصراطه المستقيم.

كما أنّ أوّل من عظّم شخصيّة العالم، وأعطاها قدرها، ورفع شأنها، هو الله عزّوجلّ، إذ جعل شهادة أهل العلم إلى جانب شهادته، فقال عزّوجلّ: ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ قَائِمًا بِالقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾[1].

(١) آل عمران: ١٨.

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِيْنَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِيْنَ أُوْتُوْا العِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيْرٌ﴾[1].

كما ألزمت النصوص عن المعصومين عليهم السلام بإكرام العلماء، عن عوالي اللآلي: قال مولانا الصّادق عليه السلام: «**من أكرم فقيهاً مسلماً، لقي الله يوم القيامة وهو عنه راضٍ، ومن أهان فقيهاً مسلماً لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان**»[2].

لكنّنا نرى أنّ كثيراً من الناس - مع شديد الأسف - يستكثرون على العلماء مثل هذه الألقاب والرّموز وغيرها من الامتيازات، ولا يستكثرون مثلها على الأكاديمي، نعم.. من حقّ الناس أن تستكثر ذلك على من لا يستحقّ أو يتطفّل بهذه الألقاب على ذوي الاستحقاق من أهل العلم ومقامات المرجعية.

٢- إنّ هذه الألقاب - يا ولدي - لم تكن في يومٍ من الأيام درجات قياسيّة كاشفة عن الموقع الحقيقي لرجل العلم، ولم تُمنح بقانونٍ أو مرسوم جمهوري ليُمنح على أساسها هذا العالم أو ذاك عائداً مادياً يطمع فيه، أوْ درجة اجتماعية يطمح إليها، أوْ مركزاً سياسيّاً أوْ إداريّاً يتطلّع

---

(١) المجادلة: ١١.

(٢) علي النمازي - مستدرك سفينة البحار: ١٠٤ / ١.

إليه، كما تُمنح الرتب العسكريّة والإداريّة والحزبيّة عند بعض الأحزاب السّياسيّة.

بل أنّ الكثير مِنْ علمائنا الذين هم من أساطين العلم وعباقرة الحوزة العلمية، الذين نبغوا في ميدان الاجتهاد والإبداع العلمي، لم يوسموا بهذه الألقاب، بل بقي أكثرُهم على ما هو عليه من اللقب المتواضع، كالشيخ الطوسي، والشيخ المفيد، والمحقّق أو العلّامة الحلّي، وغيرهم من العلماء الذين ذابت فيهم الألقاب لسموّ مقامهم، ولم يذوبوا في الألقاب.

٣- إنّ هذه الألقاب والرّموز- يا ولدي - لو لم تعطَ لرجل العلم فإنّه لا يُطالب بها، ولم يقل: لماذا لم أُمنحْ هذا اللقب أو ذاك، كما يُطالب أهل الرتب الرسمية برتبهم ودرجاتهم وشهاداتهم.

وذلك انطلاقاً من خلق التواضع الذي يمنحه لهم العلم والتقى، بل هناك من يرفض إعطاءه تلك الألقاب رغم استحقاقه، خصوصاً مع وجود الآخرين من أساطين العلم البارزين.

فقد عُرِفَ أنّ الإمام الرّاحل السيّد الخوئي قدس سره كان يلقّب بـ(زعيم الحوزة العلمية)، فلما طُبع كتاب تحرير الوسيلة - الرّسالة العمليّة - للإمام الخميني قدس سره، كانت تحمل لقب (زعيم الحوزات أو الحوزة

العلمية).

فلمّا رأى الإمام الخميني تلك العبارة على الغلاف، استدعى المسؤول عن تصميم الغلاف إلى مكتبه، وسأله قائلاً: مَنْ أمرك أن تلقّبني بهذا اللقب؟ إحذف هذه العبارة، وإلّا أمرت برمي كلّ الكتب في نهر دجلة، فقاموا بإلصاق ورقة على نفس العبارة لآلاف النسخ المطبوعة.

بإمكانك - يا ولدي - أن تستوحي، من هذا الموقف، خلق التواضع الذي عليه علماؤنا (رض)، وكما قال رسول الله: «**من طلب العلم لله، لم يصب منه باباً إلّا ازداد في نفسه ذلّاً، وفي الناس تواضعاً، ولله خوفاً، وللدّين اجتهاداً**...الحديث»[1].

وورد - أيضاً - في صفات المؤمن: أنّه بقدر ما يتوق إلى طلب العلم، فإنّه يتوق إلى ما يلازمه من خلق التواضع، كما عن الإمام أمير المؤمنين -في سياق حديثٍ طويل- في وصف العالم قال:

«**لا يشبع من العلم دهره، الذلّ أحبّ إليه مع الله من العزّ مع غيره، والتواضع أحبّ إليه من الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقلّ كثير المعروف من نفسه، ويرى الناس كلّهم خيراً منه، وأنّه**

(١) روضة الواعظين: ص ١٥.

شرّهم في نفسه، وهو تمام الأمر»[١].

٣- في نقطة الانتهاء:

بما أنّ المنهج الأكاديمي - يا ولدي - له حدودٌ معيّنة، ونقاط انتهاء في مناهجه ومادّته العلمية، ثم الوقوف على درجة أو شهادة معيّنة.

فقد يوحي هذا المنهج، إلى ذهن الطالب الحوزتي في بداية الخطى، تصوّرًا بأنّ هناك نقطة تمثل نهاية الطريق له في الحوزة العلمية، كما كان عليه حاله في الدراسة الأكاديمية.

بينما لا نهاية للعلم في منطق الحوزة العلمية، فلا ينبغي لك أن ترسم لهذه المسيرة نقطة انتهاء، كما جاء عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**من ادّعى من العلم غايته فقد أظهر من جهله نهايته**»[٢].

وعنه عليه السلام - في صفة أبغض الخلائق إلى الله -: «**... ورجل قمش جهلاً... قد سمّاه أشباه الناس عالمًا وليس به.. لم يعضّ على العلم بضرس قاطع.. لا يحسب العلم في شيء ممّا أنكره، ولا يرى أنّ من وراء ما بلغ مذهباً لغيره، وإنْ أظلم عليه أمرٌ اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه**»[٣].

---

(١) محمد الريشهري - ميزان الحكمة: ٢ / ٢٤١.

(٢) أبو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ح / ٩١٩٣.

(٣) محمد الريشهري - ميزان الحكمة: ٣ / ٤٠٤.

ذكر لنا أستاذُنا في الأصول، السيد الحائري (دام ظلّه) عن أحد أساطين العلم، أنّه سأل ولده - أو أحد طلّابه -: مثل مَنْ تريد أن تكون بطلبك العلم؟ قال له: أريد أن أكون مثلك، قال له أستاذه: لن تصل إلى ما تريد، قال: لماذا؟.

قال: لأنّي ما وصلت إلى ما وصلت إليه إلّا بعد أن أردت أن أكون كالإمام جعفر الصادق عليه السلام، فارسم لسعيك نقطة أبعد، وأعطِ العلم كلّك ليعطيك بعضه، ولا تحسب أنّك بلغت من العلم كلّ شيء.

لهذا تبقى صلة الطالب الحوزتي قائمة بمصدر التلقّي ومنبع العطاء الفكري والرّوحي، هما: الكتاب والأستاذ، ولو في المراحل المتأخّرة من عمر هذا الأستاذ للاستفادة العلمية منه.

ومن مصاديق هذه الصّلة، هي اللقاءات العلميّة التي تعتبر من ضرورات العمل الرّسالي المنتج، للاستفادة من التجارب والمواقف وأسلوب العمل، وتطوير القدرة الحواريّة للطالب، وإضفاء الروحيّة عليه، من بركة هذه الشخصيّات الروحيّة، لتنعكس آثارها على المسيرة التربويّة للطالب في ميدان التبليغ.

بل حتى بعد وفاة الأستاذ - يا ولدي - تبقى أصداء وخيوط هذه العلاقة قائمة بينه وبين طلّابه، مفعمة بالتقدير والإجلال.

فإنّك في الوقت الذي لا تتذكر من المؤسّسة الأكاديميّة إلا اسم الجامعة أو المؤسّسة التي درست فيها هنا أو هناك، ففي نطاق المؤسّسة الحوزتية، عندما تذكر تراجم العلماء بتفاصيلها، يفرض عليك الموقف أنْ تتذكّر في صدارة هذه التفاصيل أساتذتهم ومصادر الإشعاع في حياتهم العلميّة، وتتعرّف على أواصر الصّلة الوثيقة الخالدة بين الطالب وبين أستاذه.

كما أنّ من خلال هذه الصلة - يا ولدي- تتجسّد أمامك الحقوق الواجبة عليك كمتعلّم تجاه أستاذك، كما جاء عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قوله: «**تواضعوا لمن تتعلّمون منه وتواضعوا لمن تُعلّمون**»[1].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام في رسالة الحقوق: «**حقّ سائسك بالعلم، التعظيم له، والتوقير لمجلسه، وحسن الاستماع إليه، والإقبال عليه، وأن لا ترفع عليه صوتك، وأن لا تجيب أحداً يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يجيب، ولا تحدّث في مجلسه أحداً، ولا تغتاب عنده أحداً، وأن تدفع عنه إذا ذكر عندك بسوء، وأن تستر عيوبه، وتظهر مناقبه، ولا تجالس له عدوّاً، ولا تعادي له وليّاً، فإذا فعلت ذلك شهد لك ملائكة**

(١) الشيخ الطبرسي - مشكاة الأنوار: ١ / ٣١٠.

الله بأنّك قصدته، وتعلّمت علمه لله جلّ اسمه لا للناس»[1].

هذه الحقوق - يا ولدي - تجعلك على صلة دائمة بمصدر ثقافتك ومنبع معارفك، ومعلّمك الذي ألهمك معرفة ربّك، والبصيرة في دينك، فلابُدّ من أن تذكر له الفضل عليك بتعليمك ما جهلت، وتستنير بما علمك في كلّ مراحل عمرك ما بقيت وبقي الدّهر.

٤- في طريقة التقييم:

فإنّ بحكم اعتماد طالب الحوزة العلمية على الدّوافع الذاتية، وعلى عامل المحاسبة من داخل الضمير، ومن أعماق الذات التي من المفترض أن تكون قد صقلت بروح الورع والتقوى والإخلاص والشعور بالمسؤولية.

فمن غرر الحكم: «**من لم يقدّم إخلاص النيّة في الطاعات لم يظفر بالمثوبات**»[2]، وأي طاعة أفضل من طلب العلم؟ وأي مثوبة أعظم من أن يؤدّي المرء مسؤولية العلم الذي يتعلّمه، ويهتدي ويهدي بنور علمه؟.

فهو - إذن - لا يحتاج إلى تقييم امتحاني، بل إنّ أنشطته وتحصيله

(١) الشيخ الصدوق - الخصال: ١ / ٥٦٧.
(٢) أبو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ١ / ٤٥

وبحوثه وعطاءه لغيره، هي التي تعتبر مقياساً للتقييم، وتعطي المؤشّر على مكانته العلمية.

كما أنّه من المعروف - يا ولدي - أنّ شخصيّة طالب العلم الحوزتي شخصيّة مزدوجة في الميْدان الدّراسي بين الأخذ والعطاء، وهي الازدواجية الإيجابية التي تعني كون الطالب في الحوزة متعلّماً ومعلّماً في نفس الوقت.

فهو يتلقّى الدّروس ممّن يتقدّمه في المستوى العلميّ، ويُعطي دروساً أخرى للمراحل الأولى لطلبة الحوزة العلمية، وهكذا تتفاعل الطاقات من أجل البناء العلمي.

بينما لا يوجد هذا التقييم للطالب الأكاديميّ إلّا من خلال الدّرجة الامتحانية، التي غالباً ما تكون درجة اعتباريّة لا صلة لها بالمستوى الحقيقيّ للطالب، بالرغم من كون الامتحانات التقييمية قد ظهرت في الآونة الأخيرة على صعيد الحوزة العلمية.

ولكن الدّرجة الرقميّة لا تعتبر هي المقياس الحقيقي للمستوى العلميّ للطالب، بقدر ما تكون وسيلة لالتماس المبرّر والمسوّغ لدى المرجعيّة، لصرف الحقّ الشرعيّ من سهم الإمام عليه السلام إلى الطالب على ضوء استحقاقٍ معيّن ولو كان اعتبارياً، للخروج من المسؤولية

الشرعية.

كما أنّها - من ناحية أخرى - تعتبر وسيلة ضبط على خطّ المسيرة العلميّة، لإثارة استعداد الطالب وحرصه على التحصيل العلمي في خضمّ هذا الكمّ من المنتسبين إلى المؤسّسة الحوزتية.

*****

عقبات في طريق المطامح

من الملاحظ - يا ولدي - ومنذ قدم الحوزة العلميّة، وفي الأعمّ الأغلب، في بداية انتساب الطالب إلى هذه المؤسّسة، لم تكن له رؤية واضحة ومعرفة تفصيلية بطريقة التقديم وكيفيّة القبول لدى هذه المؤسّسة العميقة الجذور الواسعة الأبعاد، كما لم تكن له رؤية بما سيواجهه في بداية الخطى من عقبات وعوائق، قد تستمرّ به زمناً طويلاً.

فبالرغم من كونك - يا ولدي - قد تتقدّم إلى الحوزة بتوجّه ورغبة وطموح، لكنّك ينبغي أن تضع على ذهنك، أنّك غالباً ما تُفاجأ بعدة عقبات ومثبّطات، وهي على قسمين:

الأوّل: ما يفرضه المحيط السياسي والاجتماعي في طريق الحوزة العلمية من الصعاب والعقبات، وفي صدارة تلك الصعاب، ما تضعه الأنظمة السياسية الظالمة - كما عهده تأريخ الحوزة - من مواقف وتحدّيات لكلّ ما تطمح إليه من حركة الإصلاح والتغيير التي تتعارض مع مصالح تلك الأنظمة، لذا عليك أن تؤمن أنّ طلب العلم طريق إلى

طلب الجنة، وقد حُفّت الجنة بالمكاره.

كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: حُفّت الجنّة بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات**»(١).

وعنه عليه السلام في صفة الأنبياء عليهم السلام -: «**كانوا قوماً مستضعفين، قد اختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالمجهدة، وامتحنهم بالمخاوف، ومخضهم بالمكاره... ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف، وبأيديهما العصي.**

ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، ومعادن العقيان، ومغارس الجنان.. لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء.

ولكنّ الله سبحانه جعل رسله أولي قوّة في عزائمهم، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى»(٢).

وبما أنّك على طريق الأنبياء عليهم السلام في السعي والحركة، فلا ينبغي أن تكون هذه العقبات عاملاً من عوامل الفشل والتراجع في هذا المشروع،

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٦٧ / ٧٨.

(٢) محمد الريشهري - ميزان الحكمة: ٤ / ٣٥٥

وسبباً لقتل طموحك ورغبتك.

الثاني: هناك من الصعاب والعقبات التي يفرضها نظام الحوزة ذاتها، وما تفرزه الخطى الأولى في طريق انتمائك للعمل في هذا المشروع، وهنا ينبغي لك أن تواجه العقبات التي سأبيّنها لك، بقوّة الإيمان والصّبر، وقوّة الإرادة والتصميم، إذا كنت جادّاً في إرساء الخطى على طريق العلم.

إذ أنّ من المفترض، أنْ يكون الإيمان والصّبر، هي القوّة التي عليك أنْ تستلهمها على أبعد مديات وجودك على طريق طلب العلم، لمواجهة مصاعب أكبر، وامتحانات أعقد، في طريقك الذي اخترته إلى الله تعالى، ولا شيء كالإيمان والصّبر والتقى، وقوّة الإرادة، بقادر على تذليل الصعاب، وهذه العقبات هي:

*****

أوّلاً: عقبة السكن

إذ يبقى الكثير من طلّاب الحوزة العلميّة - يا ولدي - أمام هذه العقبة شبه الحائر الذي يبحث عن ضالّته في خضمّ متلاطم من الظروف، خصوصاً مع برد الشتاء وحرارة الصّيف.

لا نقول إنّه بلا مأوى مطلقاً، وإنّما قد يكلّفه السّكن مالاً، أو يضعه البحث عن السّكن في حرج اجتماعي، لا لشيء إلّا لكون أنّ أمر الحصول على موقع السكن في المدارس متوقّفٌ على اجتياز مرحلة دراسيّة معينة، أو لكون الطالب لم يوثّق موقفه من قبل شخصٍ معروف لدى متولّي المدرسة أو الوحدة السكنية الفلانية.

وعليك - يا ولدي - أنْ تعلم أنّ التوثيق كان ولا يزال ضابطاً مهمّاً من ضوابط الانتماء إلى المؤسّسة الحوزتية، وإن ذهب ضحيّته الكثير ممّن لم يحصلوا عليه مع حسن نواياهم وانشدادهم إلى هذا النبع، ومع رغبتهم في طلب العلم والمعرفة من واقع قلوبهم ومشاعرهم، لكنّهم لم يجدوا من يوثّقهم، لذا لا ينبغي أن تتمعّر غيضاً، أو تذهب بك الأفكار

هنا وهناك، ولا ينبغي أن تتصوّر أنّ الحوزة العلمية - من خلال هذا التشدّد في الموقف - تريد أن ترفضك وتعرّضك للتضييع.

بل عليك أن تعرف - يا ولدي - أنّ نجاح الحوزة العلميّة، وسرّ بقائها، وسبب ثباتها في وجه المصاعب والمتاعب، والأعاصير الظالمة، يكمن في دقّة الملاحظة، وفي كيفية اختيار الإنسان الذي يصلح للمسيرة العلمية الهادفة، هذه المسيرة التي لا تعرقلها أيّ من الحركات المنحرفة الشاذّة.

لأنّ الهدف الرئيسي لهذه المؤسّسة، هو: أنّها لا تقتصر على أن تعدّ عقلاً علمياً فحسب، وإنّما تريد أن تعدّ روحاً، وتهذّب إنسانية، وتربّي أخلاقاً، وتبني سلوكاً، بالرغم من بعض الخروقات والمداخلات، التي لم تكن وليدة هذا العصر فحسب كما هو معروف.

فينبغي أن تكون هذه المرحلة من المعاناة - يا ولدي - محكّاً للصّبر والتحمّل، وتجربة عملية تؤكّد فيك روح الاعتزاز بالمنهج الحوزتي الجديد، لأنّ من النتائج المتوخّاة من الصّبر على المعاناة أو الأذى، هو توثيق الصّلة بين الإنسان وبين مرغوبه الذي يطمح إليه ويتعلّق به.

*****

ثانياً: عقبة الراتب المعيشي

وإنْ كان لا ينبغي أنْ يعتبر الراتب عقبة في طريق طالب العلم الذي يرمي إلى نتيجة صالحة لبناء وجوده العلمي، لأنّ هذه الغاية أكبر من أن تقف في طريقها مثل هذه العقبات.

بل لابُدّ أنْ يتوخّاها طالب العلم في أعقد السّبل وأقسى الظروف، سواء حصل على المرتّب الشهري أم لم يحصل، كما يتوخّى مرضاة الله عزّوجلّ في بقية الطاعات.

ومن غرر الحكم: «**اكتساب الثواب أفضل الأرباح، والإقبال على الله رأس النجاح**»[1]، و «**من اتّخذ طاعة الله بضاعة - أو صناعة - أتته الأرباح من غير تجارة**»[2].

فإذا ما كان الطالب قادماً بكلّ أحاسيسه ومشاعره وطموحه، ومصمّماً على تكريس كافّة جهوده وطاقاته في طلب العلم، فلا يقف

---

(١) أبو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ١ / ١٠٧

(٢) المصدر نفسه: ١١٥.

هذا الظرف أو ذاك عائقاً في طريق مسيرته نحو الهدف.

فكما يقدم الطالب الأكاديميّ على دخول الجامعة أو المعهد، وهو لا يفكّر في المرتّب الشهري خلال مسيرته الدّراسيّة، لأنّه يرمي إلى هدف في نفسه، وهو: أن يتخرّج من الجامعة حائزًا على شهادة معيّنة تؤهّله لمركز معيّن، فإنّ المفترض بطالب الحوزة العلميّة أن تنشدّ مشاعره وأحاسيسه للغاية المتوخّاة لديه من طلب العلم.

إلّا أنّ الطالب - يا ولدي - بلحاظ كونه مبتدئاً، فإنّه قد يفكّر في الراتب الشهري من خلال ما يلاحظه من تفاوت طبقي، حيث ينظر إلى أقرانه ممّن هو مبسوط العيش في الوسط الحوزتي.

كما أنّه في بادئ الأمْر، كان يمتلك فكرة عن الراتب الشهري الذي يُعطى لطالب العلم، لأنّ الحوزة العلمية قد اعتادت أن ترفع عن كاهل طالب العلم بعض معاناته.

لكنّ المشكلة التي ظهرت في الآونة الأخيرة - مع شديد الأسف - أنّ الحالة الاقتصادية المتدنّية لبعض الأسر، أفرزت عن أنّ بعضاً من الذين دخلوا إلى الحوزة العلمية لم يدخلوها إلّا بعد أن وجدوا أنفسهم قد فشلوا فشلاً ذريعاً في المدارس الأكاديميّة، ولم يحالفهم الحظّ لإكمال الشوط نحو ما كانوا يرمون إليه، كما لم يحالفهم الحظّ في الركون إلى ما

يؤمّن لهم معيشتهم من ميادين العمل.

فإنّك ترى أحدهم قد لجأ إلى الحوزة العلمية، لأنّه قد عرف أنّ هناك مرتّباً شهريّاً يُصرف لطالب العلم، وهناك من يصرّح علناً - وكما سمعنا من البعض قوله -: بما أنّي لم أجد عملاً ولا وظيفة، فليس أمامي إلّا طريق الحوزة العلمية في النجف.

فلا تصدقنّ - يا ولدي - أنّ مثل هذه النماذج يُكتب لها النجاح والتوفيق، أو تتقدّم في مضمار العلم أخذاً وعطاءً، لأنّ مَنْ كان هذا هدفه فهو أسرع الناس للانحراف والانجراف والسعي وراء كلّ منْ يملأ ركابه من الدنيا، وهو ممّن يطلب الدّنيا بالعلم.

قال رسول الله ﷺ: «**من أكل بالعلم طمس الله على وجهه، وردّه على عقبيه، وكانت النار أولى به**»[1].

وقال ﷺ: «**مكتوب في الكتاب الأوّل: يا بن آدم علّم مجاناً كما عُلّمت مجاناً**»[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**من ازداد في الله علماً، وازداد للدّنيا حبّاً،**

---

(١) المتقي الهندي - كنز العمال: ح / ٢٩٠٣٤.

(٢) الترغيب والترهيب: ١ / ١١٩.

ازداد من الله بعداً، وازداد الله عليه غضباً»[1].

لذا فإنّ الحوزة العلمية تعاني من العمامة ظاهرتين، هما حقيقتان بالملاحظة والعلاج من قبل من يهمّهم الأمر:

الأولى: ظاهرة العمامة المغرضة، التي اخترقت هذه المؤسّسة لهدف غير طلب العلم، وغاية ليست هي خدمة الرسالة والمذهب الحقّ، بقدر ما تكون لخدمة الذات والمصالح الخاصّة، واستدرار الرّبح والعنوان أو المنصب.

الثانية: العمامة الوضيعة، التي وضعتها نماذج مبتذلة في الواقع الاجتماعي، لا تعتني بوقارها وكرامتها، ولا تمثّل المظهر العلميّ المؤثّر في ساحة الواقع، بل همّها الجلوس أو التحرّك هنا وهناك من أجل الاستعطاء والتسوّل.

ممّا يعطي انطباعاً لسواد الناس، بأنّ العمامة على حدّ سواء، تستأثر ولا تؤثّر، وتستعطي ولا تُعطي، لأنّهم لا يميّزون بين العمامة الرّسالية الهادفة، وبين العمامة المتسوّلة.

وفي هذا الصدد يحضرني بيتان من الشعر، يحتمل قويّاً أنّهما عن

---

(١) الإختصاص: ٢٤٣.

الشيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاءقدس سره جاء فيهما:

خليليّ كم ثوبٍ وكم من عمامةٍ
على جسدٍ ما فيه علمٌ ولا عقلُ
وكم لحيةٍ طالت على ذقن جاهلٍ
وما تحتها إلّا الغباوةُ والجهلُ

بينما ينبغي أنْ تكون العمامة زيّاً معزّزاً مهاباً، كما تُهاب المؤسّسة العسكريّة التي لا يتجرّأ أحد على انتحال صفةٍ من صفاتها أوْ رتبةٍ من رتبها.

*****

ثالثاً: عقبة المنهج

بحكم كون نظام الدّراسة الحوزتية، هو نظام الحلقات المتفرّقة هنا وهناك على باحات المساجد، فقد يبقى الطالب مذبذباً بين مناهج عدّة، فلا يستقرّ على منهج ثابت إلّا بعد مضيّ الكثير من الوقت.

واعلم - يا ولدي - أنّ هذا ثمن الحريّة التي منحت لطالب الحوزة منذ القدم في اختيار المنهج والمدرّس الذي يستفيد منه، لذا يعتمد هذا النظام على حركة الطالب، وكيفيّة توجّهه وبحثه عن الأستاذ الذي يجد عنده ضالّته.

ويعتمد البحث عن الأستاذ الكفوء، على العلاقات الطيّبة التي يتعرّف الطالب من خلالها على هذا الأستاذ، وربّما استغرق منه البحث وقتاً طويلاً، وتسبّب في هدر الكثير من الأوقات، إذ يتنقّل الطالب من حلقة إلى أخرى، حتى ترسو سفينته إلى الميناء الآمن النافع، وحتى يستقرّ على مرفأ الاستفادة العلمية.

هذا ما كان يعانيه طالب العلم آنذاك - يا ولدي - ويعانيه البعض في الوقت الحاضر، حتى حدثت القفزة النوعية بالمنهج التدريسي

للحوزة العلمية من قبل المرجعية الرشيدة، التي ابتدأها المرجع الديني الراحل الإمام الحكيم تغمّده الله.

وهي افتتاح مدرسة نموذجيّة، افتُتِحت سنة ١٩٦٧ بإسم (الدورة الدينية)، وعرفت بعد ذلك بـ(مدرسة العلوم الإسلامية للإمام الحكيم)، وهي تتميّز بميزاتٍ ثلاث هي:

١- وحدة المنهج الدراسي الذي يجتمع على تلقّيه كادر من طلّاب الحوزة العلمية.

٢- وجود نخبة من الأساتذة الأكفاء الذين يتمّ اختيارهم بدقّة.

٣- لا يُقبل فيها الطالب إلّا بعد التوثّق من نزاهته وحسن سلوكه.

وتعتبر (مدرسة دار الحكمة للعلوم الإسلامية) حالياً - يا ولدي - إنماءً لتلك النبتة، التي عصفت بها الظروف السياسية الصدامية القاسية.

وبقيت هامدةً تحت ركام الظلم الصدامي، تنتظر شؤبوب الحياة، منذ عقد السّبعينات وحتى سقوط الصّنم العفلقي العاتي صدام، فسُقيت هذه النبتة بالفكرة المنهجية الجديدة لتنهض من جديد، عسى أن تتحوّل إلى رياضٍ يانعة تؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربّها.

*****

رابعاً: عقبة العلاقات

لا يستغني أحدُنا - يا ولدي - عن الصحبة والصداقة في مختلف الدّوائر الاجتماعية، فضلاً عن الحوزة العلمية التي تتكثّر فيها العلاقات والرّوابط منذ القدم، لكنّها ليست كأيٍّ من الروابط.

بل هي قائمة على مقتضيات وأسس علمية هادفة، تصبّ في إطار التربية والتنمية العلمية والثقافية، وهو ما ينبغي أن يبني عليه الطالب الحوزتي علاقاته، كما ألمح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى ذلك في كلامه لولده الحسن عليه السلام:

«إذا نازعتك إلى صحبة الرّجال حاجة فاصحب من إذا صحبته زانك، وإذا خدمته صانك، وإذا أردت منه معونة أعانك، وإن قلت صدّق قولك، وإن صلت شدّ صولك، وإن مددت يدك بفضل مدّها، وإن بدت عنك ثلمة سدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن سألته أعطاك، وإن سكتّ عنه ابتداك.....»[1].

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٤٤ / ١٣٩

إذ يستوحى من ذلك: أن لابُدّ من أن تتأطّر العلاقة الاجتماعية بمقتضياتها العقلائية، وإن كان هناك في مجتمعنا من يُملي عليه الظرف الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي أن يركن إلى هذه الصّحبة أو تلك.

إلّا أنّ في مقدّمة المقوّمات، هو: ما عرضه الإمام عليه السلام من مقوّمات الصحبة، بأن يزينك صاحبك بالعلم والمعرفة والأدب، ويلقي عليك خلعة الخلق وجميل الخصال، ومن أجل ذلك تكون خير العلاقات والروابط، هي العلاقات العلمية والثقافية.

ولربما يأخذ بك الإعجاب - يا ولدي - بكلّ من ارتدى العمامة، وتتصوّر أنّه القدوة الذي يحتذى به، في حين أنّ هناك رؤية دقيقة، لابُدّ من أن تؤخذ بعين الاعتبار بحقّ كلّ من انتسب إلى السلك الحوزتي، حتى يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، لكي يتحدّد الموقف التكليفي تجاه كلٍّ من الحالتين السلبية والإيجابية.

فلا تختلف لديك كيفية اختيار الزميل الحوزتي عن كيفية اختيار الصديق الصالح النافع، بل يفترض أن تكون أكثر دقّة، وأوثق رؤية عن غيرك في اختيار الزميل، خصوصاً في الظروف المتأخّرة التي مرّت وتمرّ على الحوزة العلميّة، وهي تتعرّض لمداخلات من خارج جوهرها

ومواصفاتها كما هو معروف.

فأنت - يا ولدي - أوّل من يطلّ على ما تركه المعصومون عليهم السلام من توجيهات حاشدة، تستطيع من خلالها أن تتلمّس القواعد والأسس التي رسموها لنا في مجال الصداقة والأخوّة، وكيفية تحديد الصديق الصالح.

خصوصاً في عصرنا الحاضر، الذي تحكم فيه علاقاتنا أزمة الثقة، ونفتقد فيه الاطمئنان إلى كلّ أحد، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا كان الزمان زمان جور وأهله أهل غدر فالاطمئنان إلى كلّ أحد عجز**»(١).

ثم عليك أنْ تعلم - يا ولدي - أنّ من خلال الصّداقة والزمالة يتحدّد ويُعرف صلاح المرء من فساده، وذلك، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»(٢).

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال في حديثٍ طويل منه: «....**فمن اشتبه عليكم أمره ولم تعرفوا دينه، فانظروا إلى خلطائه، فإنْ كانوا من أهل دين الله فهو على دين الله، وإنْ لم يكونوا على دين الله، فلا حظّ له**

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٧٥ / ٢٣٩.

(٢) الأمالي للشيخ الطوسي: ٢ / ٩٥.

في دين الله»[١].

كما تتّجه النصوص - يا ولدي - إلى التأكيد على أنّ الصديق الصدوق هو: من كان لك ناصحاً ومعيناً لك على نفسك، لا يتغاضى عن عيوبك وأخطائك إرضاءً لك وطمعاً بما في يديك، ولا يغريك على ارتكاب المعاصي بغية إسقاطك والتشهير بك.

كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**صديقك من نهاك وعدوّك من أغراك**»[٢]، وعنه عليه السلام: «**من لا يصحبك معيناً على نفسك فصحبته وبالٌ عليك**»[٣].

وفي موضع آخر يصنّف لك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الناس إلى ثلاثة أصناف فيقول: «**الرجال ثلاثة: عاقل وأحمق وفاجر: فالعاقل: الدين شريعته، والحلم طبيعته، والرأي سجيّته، إن سُئل أجاب، وإن تكلّم أصاب، وإن سمع وعى، وإن حدّث صدق، وإن اطمأنّ إليه أحدٌ وفى، والأحمق: إن استنبه بجميلٍ غفل، وإن استنزل عن حسن ترك، وإن حمل على جهلٍ جهل، وإن حدّث كذب، وإن فقه لا يفقه، والفاجر: إن**

---

(١) صفات الشيعة: ١ / ٢.

(٢) أبو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ١ / ٢٨١.

(٣) أبو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ١ / ٢٩٥.

ائتمنته خانك، وإن صاحبته شانك، وإن وثقت به لم ينصحك»[١].

وبهذا المنهج الذي ترسمه لك النصوص الشريفة لتحديد الصداقة، لا ينبغي أن تغلق على نفسك باب الصداقة، كما عليك أن لا تبادر إلى معاداة أحدٍ قبل أن تعرف ما بينه وبين الله عزّوجلّ، وتدرس موقفه من رسالته ودينه.

كما قال الإمام الجواد عليه السلام: «**لا تعادِ أحداً حتى تعرف ما بينه وبين الله تعالى، فإن كان محسناً فلا يسلمه الله إليك، وإن كان مسيئاً فإنّ علمك به يكفيكه فلا تعادِه**»[٢].

لأنّك - يا ولدي - مؤمن بالمزج بين رسالة الدين ورسالة العلم، وعلى المؤمن أن يلتزم ويعمل بمنهج رسالته، التي لم تكن تعرف العداء للإنسانية في يومٍ من الأيام.

فعلى المؤمن بهذا المنهج التربوي، أن لا يجاهر بمعاداة من خالفه بالرأي أو أيّ اتّجاه، إلّا بعد أن يُعلن المقابل عداوته الصريحة للدين، ويتبنّى منهجاً للتحرّك ضدّ الحقّ والرسالة.

ثم لو تتبّعت النصوص - يا ولدي - لوجدت أنّ الذي حدّدته

(١) محمد الريشهري - ميزان الحكمة: ١٠ / ٥٢٣

(٢) محمد الريشهري - ميزان الحكمة: ٢ / ٦٢.

لك النصوص الإسلامية من خطر العداوة، ودعتك إلى تحديد موقفك منه، هما عدوّان:

الأوّل: عدوّك من داخل ذاتك، أي: عداوة نفسك لك، بما تحمله من غرائز ورغبات وأهواء تشكّل لك تياراً عارماً، وقوّة تتخندق في داخلك لتعترض طريقك إلى الله عزّوجلّ، وتعرقل حركتك باتّجاه التكامل والتسامي بروحك وفكرك وسلوكك وأخلاقك.

قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما من عدوّ أعدى للإنسان من الغضب والشهوة فاقمعوهما واغلبوهما واكظموهما**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك**»(٢)، وهو ما يتمثّل في أهوائها وغرائزها ونزواتها الطامعة، وما يزينه الشيطان من بهارج الحياة ومواقعها.

لذا فإنّ صاحب الموقع الديني، وأيّ ناشطٍ في هذا المجال يكون - دائماً - هدفاً لقوة الشيطان الغاشمة، فيحتاج إلى عدّةٍ روحية فاعلة، يتصدّى بها لمكائد وإغراء النفس والشيطان، كما يحتاج إلى مراقبةٍ دائمة لنفسه ولكافة أنشطته وتحرّكاته، لأنّ الشيطان عندما يتمكّن من إنسانٍ

(١) محمد الريشهري - ميزان الحكمة: ٢ / ٦٥

(٢) نفس المصدر

عاديّ ويحرفه عن الطريق، فإنّه يحرف فرداً لا يشكّل انحرافه خطراً على الكيان الدينيّ والاجتماعي العام، أمّا انحراف العالِم فإنّه يعني انحراف الأمّة، لأنّها تفتقد القدوة الصالحة لسلوكها، أمّا لماذا تكون النفس أعدى أعدائك؟ فذلك يعود لسببين:

أ - لأنّ النفس - يا ولدي - أقرب شيء إليك، لذلك عندما يكون أعداؤك في الخطّ الأوّل، وبالقرب منك، ويعرفون نقاط ضعفك، سوف يكون خطرهم عليك أكبر.

خصوصاً إذا ما كانوا يُظهرون لك المودّة، ويتظاهرون لك بالصداقة، ويزيّنون لك القبيح ويغرونك عليه، لذا قيل: «**احذر عدوّك مرّة واحذر صديقك ألف مرّة**»[1].

ب - لأنّ النفس - يا ولدي - مرتع النزوات، ومستودع الشهوات والرغبات الجامحة الملحّة، فكان لإبليس الدور في استغلالها، والوسوسة لك من خلالها لإيقاعك في شباكه.

الثاني: عدوّك من خارج ذاتك، أي: ما يشكّله محيطك من الأعداء الذين لا موقع لك في نفوسهم، ولا مكان لك في قلوبهم، وهم أعداء المعرفة وأتباع الظَّلَمَة، ومروّجو الفتنة، الذين ولدت ونمت معهم

(١) نهج السعادة للشيخ المحمودي: ٣٩٣.

عداوتهم لله وللرّسل والأنبياء.

وتستمرّ محاور تلك العداوة منهم لأهل العلم والفضل، الذين لم يألوا جهداً في طلبه وتبليغه، قال الله عزّوجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالجِنِّ﴾[1].

*****

(١) الأنعام: ١١٢.

العلم وشعار الجوع والغربة

لقد كانت الحوزة العلمية - يا ولدي - منذ أقدم العصور تحمل شعارها المعروف لكلّ طالبٍ من طلبتها وهو: أنّ العلم يُطلب في الجوع والغربة، فكان الفقر والزهد والتقشّف هو الطابع العام الذي يسود المؤسّسة الحوزتية.

بل العلم هو الطاقة التي تحمل لك العون على كلّ هذه المعاناة، كما جاء عن رسول الله ﷺ قوله: «**تعلّموا العلم، فإنّ تعلّمه لله حسنة، ومدارسته تسبيح، - إلى قوله -: لأنّه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل الجنة، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدّث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والقربة عند الغرباء**»[1].

ولذلك فإنّ الصبر على المعاناة يُلازم طلب العلم، لأنّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وبما أنّ العلم يوثّق الإيمان ويرسّخ

---

(١) أعلام الدين في صفات المؤمنين: ٨ / ٥

قاعدته في نفس طالب العلم، فلا شكّ في كون الصبر على طلبه من المستلزمات الأساسية.

نُقِلَ عن الشيخ عبد الكريم الحائري ﷺ مؤسّس الحوزة العلمية في مدينة قم المقدّسة قوله: «عندما كنت طالباً أدرس على يد المرحوم المجدّد محمّد حسن الشيرازي ﷺ في سامراء، وكانت لي غرفة في الطابق العلوي من المدرسة، وفي أيام الصيف، كان ينزل الطلبة إلى سرداب المدرسة، هرباً من الحرّ الشديد أمّا أنا فأبقى في نفس الغرفة، والعرق يتصبّب من رأسي ووجهي.

فكنت أخلع ثيابي وائتزر بمئزرٍ لأقاوم الحرّ الشديد، وفي تلك اللحظات أتفكّر وأتدبّر في معلوماتي، وكلّي سرور أن أتوصّل إلى حلّ بعض المسائل المستعصية، وأحياناً أرقد قليلاً بعد الإرهاق من شدّة التفكير، ثم أستيقظ لمواصلة التفكير فأجد الحلول للمسائل المستعصية أمامي) أنظر كتاب قصص وخواطر للشيخ عبد العظيم البحراني.

إنّ التقادم الزمني - يا ولدي - لم يغيّر هذا المفهوم الأخلاقي للطالب، ولم تلغِهِ الحوزة من واقع الروح المخلصة لطالب العلم، بالرغم من تحسّن الأوضاع المادية، إذ لم تبقَ الحياة مغلقةً على الشمعة الزيتية، أو مطويّةً على إدام الملح وقرص الشعير.

بل أصبح من المتيسّر لكلّ طالبٍ من طلّاب الحوزة العلمية، أن يلتحق بمستوى متوسّط الحال من العيش، لاسيّما مع الإمكانات المتاحة والملحوظة للمرجعية الدينية، التي أصبحت قادرةً على توفير مستلزمات ووسائل الاستقرار، وتفادي جزء كبير من حالة المعاناة التي كانت تحيط بواقع الحوزة العلمية، ولكن ينبغي أن يبقى الاستعداد لتحمّل المعاناة قائماً في نفس الطالب الجادّ.

فبالرغم من كلّ هذا التطوّر في الإمكانات، والتحسّن في المستوى المادي، الذي يعتبر حالةً انتقالية طبيعية، فإنّ هناك اختلافاً في وجهات النظر وفي الموقف من هذه المسألة لطالب العلم، ومن خلال الاستقراء للطروحات في الوسط الحوزتي، وجدت أنّ الآراء تنقسم إلى فريقين:

الفريق الأوّل:

هناك من يرى أنّه لابُدّ من الحفاظ على هذا المفهوم لدى الطالب الحوزتي، وذلك بالحفاظ على الحالة المتواضعة للطالب، ووضعه على محكّ الاختبار الصّعب، بالرغم من القدرات والإمكانات المادية الملحوظة لدى المرجعية.

فيعتبر التقتير على الطالب طريقة للتصفيات، للحصول على مَنْ أخلص نيّته لطلب العلم، وحرص على الاستفادة منه في خضمّ المعاناة

الصعبة، على غرار قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾[1].

مع كون هذا التقتير طريقة تربويّة تقتضي وضع الطالب على المحكّ، وصهره وترويضه على تحمّل المشاق والصّعوبات.

قال رسول الله ﷺ: «**نور الحكمة الجوع، والتباعد من الله الشبع، والقربة إلى الله حبّ المساكين والدنوّ منهم، لا تشبعوا فيطفأ نور المعرفة من قلوبكم، ومن بات يصلّي في خفّة من الطعام باتت حور العين حوله**»[2]. وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يُدرك العلم براحة الجسم**»[3].

لأنّك - يا ولدي - تطلب العلم من أجل رسالة العلم، ورسالة العلم هي: العمل من أجل رسالة الإسلام، وترويج تعاليم الدّين، وخدمة مذهب الحقّ الذي خَدَمَه الأسلاف الهداة، الذين تحرّكوا بنور الحكمة والصبر على الأذى والمصاعب والمعاناة.

---

(١) الرعد: ١٧

(٢) جامع الأخبار: ٢٤ / ح / ٥.

(٣) أبو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ح / ١٠٦٨٤.

الفريق الثاني:

وهناك من يرى أنّ تربية الإنسان المؤمن، إنّما تنبع من خلال ما يحمله من مفاهيم وقيم أخلاقية عالية من واقع رسالته، وتلك المفاهيم هي التي توجّهه وتجعله مندكّاً في صميم المسؤولية، متكيّفاً متطبّعاً مع كافة الظروف، لا يغيّره المال والثراء ولا الفقر والبلاء، لأنّه لا يحبّ الدنيا لأجل الدنيا.

إنّ طالب العلم - يا ولدي - واحدٌ من رسل الله عزّوجلّ في الأرض، الذين كانت تختلف سعة العيش وضيقه من شخصٍ لآخر، وكلّ رسول من هؤلاء الرسل، يحمل إلى الأمّة منهج الهداية إلى الله، ومشعل الدلالة على الحقّ.

كذلك طالب العلم، هو على علمٍ بما سيعترض هذه الرّسالة من عقبات وأتعاب ومرارات، سواء على مستوى كونه قد تصدّى لمرجعية الأمّة، أو أصبح وكيلاً أو مبلّغاً أو معتَمَداً للمرجعية.

فعلى كافة مستويات المسؤولية التي أنيطت بطالب العلم، فهو يحتاج إلى تربية الحسّ الذي يجعله في حالة الفقر والغنى على حدٍّ سواء، وهو الذي يختار الحالة التي يراها على ضوء ما يملكه من المفاهيم والقيم الرسالية العُليا.

إنّ امتلاك العدّة الكبرى - يا ولدي - من الصبر والتحمل والثبات في وجه التحدّيات والعقبات، لا يُشترط أن يكون من خلال التقشّف وترك الطيبات، لقوله عزّوجلّ:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1]، سوى أنّ التقشّف هو من العوامل التي تساعد على ترويض النفس على الصبر وتحمّل المشاقّ في ساحة المواجهة.

إلى جانب زخمٍ آخر من المفاهيم الإسلامية الواعية، هي التي تربّي الشخصيّة وتوجّه مواقفها، وتوحّدها في خطّ الوقوف والمواجهة أمام التحدّيات بكلّ أشكالها، بلا فرق بين كون هذه الشخصيّة متقشّفة زاهدة، وبين كونها مترفة مرفّهة متمكّنة من بسط العيش.

في عقد السبعينيات -في مدرسة العلوم الإسلامية للإمام الحكيم- ذكر لنا أستاذُنا في الأصول السيد الحائري (دام ظلّه): أنّ أحد الملوك زار الشيخ الأنصاري في مكتبه آنذاك، فوجد ما عليه الشيخ من الزهد والتقشّف الواضح على عموم مظاهر حياته، فكان يسأله في شتّى الأبواب العلمية، فإذا به يفيض علماً ويتوقّد فهماً.

---

(١) الأعراف: ٣٢

ثم مضى لزيارة الشيخ الجواهري﷼، فوجد ما عليه الشيخ من أناقة المظهر، وترف العيش، فكان يسأله أيضاً في شتّى الأبواب العلميّة، فلم يكن أقلّ قدرة علمية عن الشيخ الأنصاري قدس سره.

وعلى مشارف انتهاء الجلسة مع الشيخ الجواهري قدس سره، بادره الملك بسؤال كانت فحواه: ما هذا الفارق في العيش بينك وبين الشيخ الأنصاري؟ أما لديكم ما تجودون به عليه ممّا أنعم اللهُ عليكم؟، فأجابه الشيخ الجواهري رحمه الله قائلاً: «إنّ الشيخ الأنصاري يمثّل زهد الإسلام، كما أنّي أمثّل عزّ الإسلام».

بمعنى: أنّ الشيخ الأنصاري رحمه الله قادرٌ على الخروج عن هذا المظهر المتقشّف، ولكنّه التزم هذا الخطّ بمحض إرادته واختياره، ولم يكن ذلك عثرةً في طريق إبداعه وعبقريته، بل كان تنفيذاً لمفهوم إسلاميّ، كذلك اختار الشيخ الجواهري قدس سره الخطّ الآخر تنفيذاً لمفهومٍ إسلاميّ آخر لم يكن له أثر سلبيّ على مسيرته نحو الله عزّوجلّ.

إذ لا تناقض بين المفاهيم الإسلامية التي يحملها قادة الإسلام من واقع رسالتهم باختلاف المواقف التي تصبّ بمجموعها في إطار الإسلام.

*****

المحور الثاني

الحوزة ورسالة التبليغ

المبلّغون رسل الله في الأرض

عليك أن تعرف - يا ولدي - بما أنّ المبلِّغ هو أحد رسل الله عزّوجلّ في الأمّة، فإنّه لابُدّ أن يكون له جانبٌ آخر من الالتزامات، زيادةً على الثوابت التي يشترك فيها مع عامّة المؤمنين الملتزمين.

فعليه أن يقفز بروحه، وفكره، وأخلاقه، وسلوكه، في الميدان القيادي قفزةً أخرى، تجعل منه القدوة الذي يُحتذى به في الإيمان، والجهاد، والصّبر، والإخلاص والموقف من الدّنيا، لأنّه معلِّم الأمّة ومهذّبها ومربّيها، الذي يستحقّ التقدير والإجلال، وكما قال الشاعر:

قُمْ للمعلِّم وفِّهِ التبجيلا كاد المعلِّمُ أن يكونَ رسولا

ولأنّه يحمل في فكره ونفسه وروحه نفس الغاية التي بُعِثَ من أجلها الرّسل والأنبياء، وهي: إحياءُ موتى الجهل الذين أطبقت عليهم كلاكله المظلمة، لذلك عليه أن يكون أميناً على أداء هذه الأمانة التي تقمّص مسؤوليّتها.

ولقد قضت الإرادة الرّبانيّة - يا ولدي - أن يجري الأمور بأسبابها

على مستوى كلّ مسيرة الكون والحياة.

وعندما تعهّد الله النصر والغلبة لرسوله ورسالته، فقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[١] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٢].

فقد كانت هذه الغلبة والنصر، ومنذ الخطى الأولى للرسالة في التأريخ، قد أجراها الله عزّوجلّ، في خضمّ الأوصاب والأتعاب والجهود والتضحيات المتواصلة التي قدّمها حملة هذه الرسالة، فلم يحجب الله تعالى عنهم النصر والعناية والهداية لمعالم الطريق بما قدّموا من جهد وجهاد في سبيله، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٣]، وذلك:

١- لأنّهم كانوا بمستوى المسؤولية التي أنيطت بهم، فأعطوا من جهودهم وعرقهم ودمائهم في سبيل أداء هذا الواجب، ووطّنوا أنفسهم على تحمّل الصعاب في هذا الخطّ.

٢- لأنّهم قد وجّهوا حركتهم بكلّ أبعادها الفكريّة والعمليّة نحو

---

(١) المجادلة: ٢١

(٢) محمد: ٧.

(٣) العنكبوت: ٦٩

الله عزّوجلّ، وأخلصوا النيّة والقول والفعل له تعالى.

٣- لأنّهم - علاوةً على ذلك - قد تحرّوا الأسلوب الأمثل في تحرّكهم على هذا الخطّ، وفقاً لمتطلّبات ظرفهم الاجتماعي.

لذا فإنّ ممّا يزيد في بناء شخصيّتك الرّسالية - يا ولدي - ويؤكّد حرصك على أداء هذه الأمانة، أن تستلهم من تأريخ رسالتك، ومن رائدها الأوّل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولو جزء من الإحساس، والشعور بالمسؤولية، والتفاني، وتستمدّ منها عناصر قوّة الشخصيّة، وأن تعرف ما هو الأسلوب الأمثل في عملك، وفي حركتك التبليغيّة، وما يُمليه عليك الواقع الحضاري والثقافي في الساحة الاجتماعية.

عليك قبل كلّ شيء أن تشعر - يا ولدي - بقيمة هذا الموقع السامي، الذي أوضحته لك نصوص أهل البيت عليهم السلام، الواردة بكونك كأيّ أحد من رسل الله عزّوجلّ، منذ أوّل خطوةٍ لك على طريق طلب العلم.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من جاء أجله وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام، لم يفضله النبيّون إلّا بدرجة**»[1].

---

(١) المتقي الهندي - كنز العمال: ح / ٢٨٨٣٢

ولعلّ المقصود من الدرجة - يا ولدي - هي: العصمة كحصانة ذاتية خاصّة في الأنبياء، أو أنّ الفرق الذي بينك وبين الأنبياء هو: أنّهم يوحى إليهم من ربّهم، وتكلّمهم الملائكة ويُلهمون العلوم والمعارف إلهاماً ووحياً.

وأمّا أنت فعليك أن تدرس وتسعى جادّاً في طريق الارتقاء والتكامل، وقد فرشت لك الملائكة أجنحتها بأمر الله، من أوّل خطوة لك على طريق طلب العلم، كما قال رسول الله ﷺ: «**إنّ طالب العلم تبسط له الملائكة أجنحتها وتستغفر له**»[1].

*****

(١) المتقى الهندى - كنز العمال: ح / ٢٨٧٤٥.

عناصر القوّة في شخصية المبلِّغ

بما أنّ مصطلح التبليغ في الوسط الحوزتي - يا ولدي - يعني الدّعوة إلى سبيل الله عزّوجلّ، وبما أنّها وظيفة رساليّة عامّة، تتّسع لها كافة أبعاد الزمن وظروفه، وتعترض مسيرتها العقبات والمصاعب والأتعاب.

كما أنّها كانت تكليفاً لرسول الله ﷺ بمدلول الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[1] وتبعه على ذلك أهل بيته والمؤمنون به في كلّ عصر، وهم أوّل من كانوا قد لاقوا ألواناً من الصعاب والمحن والابتلاءات، في سبيل أدائها.

لذا جاء التركيز على الحكمة والموعظة الحسنة، بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2].

---

(١) الأحزاب: ٤٥ - ٤٦

(٢) النحل: ١٢٥

فعلى هذا الأساس - يا ولدي - ومن أجل أن تشقّ طريقك في واقع الحياة، والمعترك الشائك، عليك أن تكون الكيّس الفطن، كما في الحكمة القائلة: «**المؤمن هو الكيّس الفطن بشرُهُ في وجهه، وحزنُهُ في قلبه، أوسع شيءٍ صدرًا، وأذلّ شيءٍ نفسًا**»[١].

وفي غرر الحكم: «**مَنْ تبصّر في الفطنة ثبتت له الحكمة وعرف العِبْرة**»[٢]. والكياسة والفطنة في شخصيّة المبلِّغ هي التي تستبطن عناصر القوة في شخصيته، إذ الكياسة، هي: العقل الذي يستوعب مخزونه العلميّ والمعرفيّ، والفطنة: هي الوعي واليقظة الحذرة من مفاجآت وتطوّرات محيطه.

فإذا اجتمعت هاتان الصفتان في شخصية المبلِّغ، استطاع أن يتعامل مع الأشياء والأشخاص، والأحداث والتطوّرات تعامل الحكيم اليقظ المتدبّر، المستنير بنور رسالته التي ترسم له أسلوب التعامل مع الواقع بكلّ متغيّراته، مع الاحتفاظ بثوابته وأسس بناء شخصيته، وعدم الخضوع لمتغيّرات وتطوّرات هذا الواقع.

فعليك - يا ولدي - أن تبني في فكرك وفي نفسك وفي كلّ أبعاد

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٦٤ / ٣٦٥.

(٢) أبو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ١ / ٢٠٦.

شخصيّتك، عناصر القوّة، التي تؤهّلك للحركة في خطّ الإصلاح والتغيير الاجتماعي، ويمكن بيان ما هي عناصر القوّة في شخصيّة المبلِّغ - لا على سبيل الحصر - فهي تتمثّل فيما يلي:

*****

أوّلاً: الوعي الفكري والرّوحي

أو قلْ - يا ولدي -: قوّة العقيدة التوحيدية، التي تؤكّد ارتباطك وتلاحمك مع المثل الأعلى الذي تتعامل مع أوامره وقراراته، وتخلّصك بالاستقامة، من الازدواجيّة الفكريّة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1].

فقد أوجز لك القرآن عنصرًا من عناصر القوّة في حركتك، وهي عقيدتك التي يمثّل التوحيد ركناً وثيقاً من أركانها، فإنّ كلمة ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾، هي كلمة التوحيد التي كان من أهداف طلب العلم لديك هو: أن تنمّيها في فكرك ووجدانك، وتؤسّسها في قلبك وضميرك أوّلاً، ثم تنطلق بها لتنمّيها في وجدان وسلوك الأمّة.

واعلم - يا ولدي - أنّ الأهم من ذلك، هو أن تتحوّل هذه العقيدة في نفسك إلى طاقة روحية، لتستقيم بها ذاتك في إيمانها وحركتها،

---

(١) فصلت: ٣٠.

وتستعذب منْ خلالها العمل منْ أجْل الله عزّوجلّ، وتتذوّق لذّة العناء والأذى في سبيله، وتجعلها قاعدة الانطلاق والحركة، نحو الاستقامة كما أُمِرت على خطّ العمل والتبليغ بالرسالة التي تحملها.

فإنّ تجسيد معنى الربوبيّة على واقع السلوك، يعني الانسجام الذاتيّ مع المفاهيم والقيم والمبادئ التي تؤمن بها وتدعو إليها.

فإنّك عندما تعيش معنى الرّبوبيّة في ذاتك، فإنّ عليك أنْ تعطي كلّ وجودك وحركتك، وكلّ استعداداتك لربّك الذي رعاك وربّاك وأمدّك بالمعرفة، وجعل ملائكته تفرش لك أجنحتها خلال مسيرتك العلمية.

وإنّها الآن تتنزّل عليك لتكون معك في حركتك التبليغية، وهي تستمدّ لك العون والتسديد من العليّ الأعلى عزّوجلّ، كي لا تخاف ولا تحزن، ولا تكبر في نظرك القوى والتحدّيات والمحن والمصاعب والعقبات.

أمّا عندما تجد نفسك أنّك تعتقد وتؤمن بالله عزّوجلّ وبمقرّراته، ولكنّك - لا سمح الله - في شأنٍ آخر من الفعل، وفي وادٍ آخر من التصوّرات والهموم والغايات، لا شكّ أنّك ستشعر بأنّ ذاتك تتمزّق وتتداعى من داخلها، لأنّها قد فقدت قوّتها وتأثيرها على ساحة التغيير،

لأنّك تعتقد بزيف ذاتك وتناقضها.

فيكون مثلك مثل الإنسان الذي يُريد أن يصعد ويرتفع، ولكنّ شيئاً آخر يشدّه ويجذبه إلى الأرض، فيبقى يتحرّك بين قوّتي الدّفع والجذب، لا يعرف ممّن هو؟ هل هو من أهل الصعود والارتفاع، أم من أهل السقوط والاتّضاع؟.

وهذا التناقض الذاتي في حياة المبلِّغ هو من أخطر أسباب الضّعف في الحركة التبليغية، فعليك أنْ تتخلّص منه بتطوير حالة الوعي التوحيدي والرّوحي لديك.

*****

ثانياً: الوعي الوظيفي

وهو معرفتك - يا ولدي - أوّلاً: الغاية من خلقك والهدف من وجودك، وثانياً: تفاصيل الواجب الذي أُلقي على عاتقك، بعد أن اتّضحت نِعَمُ الله عليك، وفي مقدّمتها نعمة العلم إذ أنّ شكر كلّ نعمة بحسب موقعها.

فأنت لا كأيّ مخلوق وُجد ليأكل ويشرب، وهو لا يعرف الغاية من أكله وشربه، فضلاً عن معرفة الغاية من خلقه، ﴿**أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ**﴾[1].

بل إنّك لا كأيّ إنسان آخر، فقد وُجدت لتعيش لا من أجل العيش، بل من أجل أن تؤدّي واجبك ورسالتك في الحياة، وأن تعيش بنفسك لا من أجل نفسك، بل من أجل الآخرين، لذا كان عليك أن تجدّ وتثابر وتتعلّم، وأن تتحسّس جسامة نعمة العلم عليك فتعمل بما علمت من أحكام الله تعالى.

---

(١) المؤمنون: ١١٥.

قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل فإنْ أجابه وإلّا ارتحل**»(١).

يؤكّد لك هذا النصّ الشريف: أنْ تعطي علمك دفعة من الحركة، ليعطيك دفعة من البركة، فإنّ العلاقة بين العلم والعمل علاقة تبادلية.

وهي: أنّك كلّما علمت شيئاً، هتف بك علمك: أن اجعل من هذه الطاقة حركة في واقع الحياة، لتبعث فيك طاقة جديدة، ولتفتح لك خزيناً جديداً من الطاقة، ولا تدعْ علمك محبوساً في صدرك فتخمد جذوته تحت ركام النسيان ولهو الحياة، وهموم الدنيا.

ومن كتابٍ كتبه الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام إلى محمد بن مسلم الزهري: «**كفانا الله وإيّاك من الفتن، ورحمك من النار، فقد أصبحت بحالٍ ينبغي لمن عرفك بها أن يرحمك، فقد أثقلتك نِعَمُ الله بما أصحّ من بدنك، وأطال من عمرك، وقامت عليك حجج الله بما حمّلك من كتابه، وفقّهك فيه من دينه، وعرّفك من سنّة نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فرضي لك في كلّ نعمة أنعم بها عليك، وفي كلّ حجّة احتجّ بها عليك**

---

(١) المتقي الهندي - كنز العمال: ح / ٢٩٢٨٩ .

الفرض بما قضى﴾[1].

إنّ وعيك الوظيفي - يا ولـدي - هو ثمرة علمك، وهو من إملاء عقيدتك الرسالية التي تمثّل مركز انطلاقتك لأداء هذه الوظيفة، فأنت تعبد الله عزّوجلّ، وتستقيم على خطّ طاعته، وتؤدّي مسؤوليّتك وواجبك الاجتماعي من خلال علمك، وكلّ ذلك في دائرة إيمانك بربّك وتوحيدك له عزّوجلّ.

*****

(١) الحراني - تحف العقول: ص ٢٧٤.

ثالثاً: الوعي الاجتماعي الميداني

عليك أن تعرف - يا ولدي - أنّ كلّ نبي من الأنبياء عليهم السلام كان يتحرّك في مجتمعه من خلال وعيه واستيعابه لنقاط الضعف في ذلك المجتمع، ليتعامل مع الساحة الاجتماعية من منطلق القوّة التي يعالج بها الضعف، ومن منطلق العلم الذي يعالج به الجهل، ومن منطلق الرُّشد الذي يعالج به الغيّ.

كما كان إبراهيم عليه السلام يمثّل النموذج لهذا الوعي، الذي عالج به سلبيّات الواقع الذي كلكلت عليه الوثنية العمياء، إذ قال تعالى فيه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ﴾[1]. ويرمز الرُّشد في مسيرة التبليغ الإسلامي إلى أمرين:

الأوّل: ما يحمله الداعية الرسالي من عُدّة روحية كبرى، ورصيد فكري وثقافي كافٍ، ليكون بمستوى حمل هذه الرسالة، وليستطيع أن يتحرّك لملء متطلّبات الساحة الاجتماعية.

---

(١) الأنبياء: ٥١

الثاني: ما يحمله الداعية الرسالي من وعي واستيعاب لكيفية التعامل مع هذه الساحة، ليضع العلاج المناسب على ضوء التشخيص الدقيق لموضع الداء الاجتماعي.

ولا يختلف موقف الداعية والمبلِّغ الإسلامي في هذا العصر عن موقف السلف الرسالي كإبراهيم عليه السلام وغيره من الأنبياء عليهم السلام إلّا في موقع النبوّة باعتباره موقعاً أعلى في مسيرة التبليغ الإسلامي.

فمع أنّ الله عزّوجلّ آتى إبراهيم رشده، وأراه ملكوت السماوات والأرض، وأعدّه لساحة التغيير إعداداً فكريّاً وروحيّاً خاصّاً، قبل أن ينزل إلى ساحة الواقع، لينزل بكامل ثقله، كأمّةٍ تحمل مشعلاً وعدّة كبرى، تجابه أمّة منحرفة وقوّة طاغوتية عاتية في الأرض بمدلول الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[1].

ولكن في مسألة الرُّشد، والوعي لخصوصية الساحة الاجتماعية، فيشترك الداعية والمبلِّغ الإسلامي مع إبراهيم عليه السلام إذ لابُدّ أن ينزل إلى الساحة الاجتماعية وهو يُحسن تماماً كيف يتعامل معها.

فعليك أن تعرف - يا ولدي - طبيعة كلّ فصيلة اجتماعية، بما تحبّ

(١) النحل: ١٢٠- ١٢١

وبما تكره، وبما تفكّر وبما ترفض، وبما ترغب، فإنّك من خلال العمل التبليغي تحتاج إلى دراسة الواقع الاجتماعي من زاويتين:

أ - دراسة الأرضية التي تلقي فيها بذور العلم والمعرفة لتثمر وتنتج، فلا يمكن للزارع أنْ يضع البذر حيث شاء، وفي غير أرضيته القابلة، فكما أنّ لكلّ بقعة نوعاً من البذر، فلكلّ فصيلة اجتماعية ما يناسبها من المعارف والعلوم، ومن أساليب الطرح.

ب - دراسة العادات والتقاليد السائدة في هذا المجتمع أو ذاك، لأنّ لكلّ مجتمع عاداته المتعارفة لديه - يا ولدي - حتى كادت بعض العادات أنْ تكون تشريعاً مخالفاً للإسلام في الواقع الاجتماعي.

لذا فإنّك لا تواجه انحرافاً اجتماعياً على مستوى جهل المفاهيم والأحكام الإسلامية فحسب. بل إنّك ستواجه سلوكاً وعادات، ينبغي أنْ تضع عليها علامة القبول أو الرّفض من خلال وعيك لمدلولها، ومدى انسجامها مع واقع الرّسالة أو عدم انسجامها، ويحسن بك من أجل تحديد الموقف، أن تعرف الفرق بين الذنوب والعادات:

١-: إنّ الذنوب - يا ولدي - هي شذوذ ومخالفات للقوانين والضوابط الإلهية، أمّا العادات فهي سلوك اجتماعي يتناسب حسنها وقبحها مع انطباع المجتمع الذي تسوده تلك العادات.

فقد تكون عادةٌ من العادات حسنةً في مجتمع، وقبيحةً في نظر مجتمع آخر، فعليك بعرضها على المقاييس والقوانين الإسلامية، والنظر في كونها مقبولة إسلامياً أو غير مقبولة.

٢-: بحكم المنظور الإسلامي - يا ولدي - فإنّ الذنب لا ينقسم إلى ذنب حسن وذنب قبيح، بينما تجد العادات الاجتماعيّة تنقسم إلى عادات حسنة يقرّها الإسلام ويشجّعها، ويهذّب من حركتها في الوسط الاجتماعي.

وهناك العادات السيئة، التي لا تنسجم مع الرؤية الإسلامية، والتي ترفضها ضوابط الإسلام، ويسعى إلى اقتلاع جذورها بحركته الإصلاحية والتغييرية.

٣-: إنّ الذنوب - يا ولدي - هي مخالفةُ فرد أو أفراد للقانون والفطرة الاجتماعية، يعلم المخالف بأنّ ما فعله ذنب، فينحصر تأثيره بمستوى موقف المجتمع وإحساسه بمسؤوليته.

أمّا العادات فهي أخطر المخاطر، عندما تكون تيّارًا اجتماعيّاً مألوفاً، يتّخذ طابع القبول والشرعيّة المنحرفة في سلوك المجتمع، فيصبح المجتمع كلّه أسيراً لهذه العادات السيئة، وأداةً مسخّرة لتيّارها، وهو لا يملك تجاهها إرادة واختياراً.

كما كان تأثير العادات التي سيطرت على أصالة الإنسان الفكرية والنفسية والروحية والسلوكية في مجتمع الجزيرة، وقيّدت إرادته في التغيير، وضربت حائلاً بينه وبين استقلاله الفكري وتطلّعاته وميوله للحقّ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[1].

لذلك عليك - يا ولدي - أنّ تقوم بما تتطلّبه رسالتك التبليغية، مضافاً إلى تحرير الفرد أو الأفراد من قيود وأصفاد الذنوب والمخالفات الشرعية، وأن تحرّر المجتمع من أسر عاداته وتقاليده المجانبة للإسلام، مع طرح البديل الذي يملأ مجالات حياته ويستجيب لمطالبه المشروعة، لأنّ الإسلام حافل بالبدائل والحلول الاجتماعية.

*****

(١) البقرة: ١٧٠.

رابعاً: الوعي الثقافي

وهو يعني إلمامك - يا ولدي ولو إجمالاً - بالثقافات والاتّجاهات الفكريّة، ووعيك لهويّة كلّ أطروحة ثقافية، لتتعامل معها سلباً أو إيجاباً، لتفادي مخاطر الغزو الثقافي.

لأنّك - يا ولدي - كما إذا عرفت لغة قومٍ أمنت شرّهم، كذلك إذا عرفت ثقافة قومٍ أمنت شرّها وتفاديت مخاطرها.

لأنّ الغزو الثقافي أصبح واقعاً مفروضاً في حياتنا الاجتماعية، حيث إنّ هناك ثقافات يمكن أنْ تتسلّل إلى الأُسس والمقوّمات الثقافية لمجتمعنا، بغية تحقيق مآرب وأهداف في مقدّمتها: أن تسلخ الجيل من معتقداته، وتزلزل قاعدته الفكريّة وقناعته برسالته، لذا فإنّ الغزو الثقافي - يا ولدي - يستهدف سلب ثقافتين في حياة الأمّة هما:

١- ثقافة الفكر الإسلامي، حيث يهدف إلى استبدال الفكر الإسلامي الوطني بالثقافة الأجنبية، وهو هدف كانت ترمي إليه الأنظمة الاستعماريّة والعميلة، التي تعاقبت ولا تزال تتعاقب على

بلاد المسلمين، فهي آلات بواسطتها يحاول الأجنبي أن يمرّر أفكاره، ويزرعها في واقع الأمّة، وينسيها معتقداتها.

٢– ثقافة السلوك الأخلاقي، حيث يهدف الغزو إلى استبدال القيم الأخلاقيّة الإسلامية بقيم هابطة، وأخلاق منحطّة، لحرف السلوك عن الخطّ الإسلامي، بواسطة إنتاج الأفلام والمسلسلات التمثيلية والبرامج التي تنسجم مع أهدافه ومراميه.

واعلم – يا ولدي – أنّنا عندما نحذّر من الغزو الثقافي، لا يعني أنّنا نفرض عليك أنْ تتبنّى سياسة الانغلاق والقفل عن التعامل مع الثقافات والحضارات الأخرى، ولا يعني ذلك أنّك لا ينبغي أن تتعلّم من محاسن الآخرين وإيجابيّاتهم... كما أسلفتُ لك.

ألا ترى أنّ الطبقة المثقّفة قد تتحرّك في خطّ المواجهة مع علماء الدين، وذلك لأنّ علماء الدين، الذين عاشوا في القرون الوسطى لم يتركوا مجالاً للفكر والطاقات العلمية أن تتحرّك بحرية، ولم يقبلوا من العلم والثقافات إلّا ما كان يصبّ في خطّ التفكير العقائدي والديني المحض، ممّا جعل المثقّف يتنكّر لكلّ الرسالات السماوية بلا تمييز بين الرؤى والمواقف.

وهذا هو الفرق – يا ولدي – بين ما تتبنّاه وتريده رسالتك من

الانفتاح على كافة الطبقات المثقّفة، وبين ما يتبنّاه أصحاب الأديان والأطروحات الأخرى من الانغلاق والتقوقع في دائرة الفكرة التي يؤمنون بها.

ولكن يبقى المفروض، أن لا نذوب في ما نكسبه من ثقافة الآخرين وحضارتهم، وأن لا نفقد الاختيار والقدرة على الهضم لما نتعامل معه من ثقافات، وبالتالي نلوك الغثّ والسمين، ونخلط بين الجيّد والرديء، فتستفحل وتتحرك على غفلتنا وضعفنا الفكري، تلك الحضارات والحركات الثقافية.

فلا ضير - يا ولدي - من أن تأخذ ثقافة الآخرين بنحو التبادل الثقافي، الذي يقوم على أساس التلاقح الفكري، حيث تكون جامعاً لأجوبة الإسلام عن المشاكل الصغيرة والكبيرة، ما كان وما استجدّ منها، لأنّه ضرورة للتكامل، وخطوة لتجاوز نقطة الضعف، في حين أنّ الغزو الثقافي إنّما يقوم على أساس الضعف، الذي تخترق الحركات الثقافية من خلاله كيان الأمّة لاستئصال ثقافتها على كلا المستويَيْن الفكري والأخلاقي.

*****

خامساً: الوعي السياسي

وهو ما يعني - يا ولدي - أن تنمّي لديك القدرة على دراسة الأوضاع والظواهر والأحداث السياسية، وأن تقوم بعملية التحليل والاستنتاج ما أمكنك، لتكون على حذرٍ من المفاجآت والتغيّرات والمواقف السياسية.

ولا نعني بذلك - يا ولدي - أن تكون سياسياً خاضعاً لخدمة هدف أو غاية سياسية في نظر الناس، بل أن تكون صاحب رؤية سياسية، تخدم من خلالها رسالتك، ومن خلال ثقافتك وخبراتك، ومعايشتك مع الأوضاع السياسية العامة.

وهذا ما كان منشأً للخلاف الفكري بين الإسلام وخصومه، بشأن تدخّل الإسلام في السياسة، حيث قال الخصوم: ليس من حقّ الدين أن يتدخّل في الشأن السياسي، بمعنى: عدم جواز تديين السياسة، أي: جعل السياسة قد اتّخذت صبغة دينية.

فهم يحسبون - يا ولدي - أنّ السياسة شيء والدّين شيء آخر،

فلابُدّ في نظرهم، من إبعاد الدّين عن السياسة، وأن نترك السياسي يتصرّف ويعمل ويقرّر كيف شاء حتى ولو كان ظلماً وجوراً وتجاوزاً على الدين. لأنّ الذي تراه الدوائر السياسية لخصوم الإسلام هو: أنّ الحديث عن شمولية الإسلام للمجالات العامة في الحياة، وأنّ تدخّله في إعطاء الآراء والحلول في أيّ قضية من قضايا الحياة العامة يُعدّ تطرّفاً وتجاوزاً صارخاً من قبل الدّين لحدوده وحقّه في الممارسة.

أمّا نحن - يا ولدي - فنرى وفق وجهة نظر الإسلام، أنّه لا يجوز تسييس الدّين، بمعنى: لا يجوز إخضاع الدّين وتسخيره وتحديده، وفقاً للأغراض والأهداف السياسيّة، لأنّ الدين له أحكامه، وقراراته، ومواقفه المستقلّة، التي لابُدّ أن تخضع وتدين لها وتتوجه بها كلّ المواقف والسياسات والتصرّفات، وهذه الفكرة تنتج ثمرات منها:

١- جعل الدّين موجّهاً للسياسة نحو الأصلح، حتى وإنْ لم يكن القانون السياسي قد أخذ قواعده من الدّين، لكنّه يمكن أنْ يخضع لقيم السماء وروحيّتها.

٢- الحفاظ على الهويّة الإسلاميّة للأمّة، وصيانتها من التلاعب السياسي، من خلال اليقظة السياسية لدينا، مع الحفاظ على حريّة الالتزام لكلّ فئة أو طائفة، دونما غدرٍ لأيّ حقّ من الحقوق.

٣- التخلّص من الأحقاد الطائفية، ومن تحامل البعض على البعض الآخر، لأنّ السياسة التي تخضع للقيم الروحية، والتوجيه الديني، لا تعتبر عاملاً من عوامل التفرقة الطائفية والعنصرية.

*****

بين الأسلوب العلمي والاجتماعي

ينبغي أن تعرف - يا ولدي - أنّ وعيك الرّسالي ينتج المجتمع الرّسالي، لأنّك الداعية إلى الله عزّوجلّ، والهادي إلى رسالته في حياة الأمة، وتتركّز دعوتك على ربط الأمة بمعالم هذه الرسالة وأحكامها، وعلى غرس مفاهيمها وأخلاقها في واقع الحياة الاجتماعية.

لذلك فإنّك عندما تتبنّى أسلوب التربية والإعداد للأمّة، فإنّ أمامك أسلوبين تختلف آثار ونتائج كلٍّ منهما على الجيل الذي تسعى لإعداده، وهما:

الأوّل: أسلوب التربية العلمية، الذي يعني اهتمامك بترسيخ النظرية العلمية، والتعريف بالمادة الشرعية تجاه هذا الموقف أو ذاك، وبناء عقل المتعلّم بالجانب النظريّ للرّسالة.

فقد تعطي الأحكام والقوانين الشرعية كما يعطي أستاذ الفيزياء والكيمياء القانون العلمي للطالب الأكاديمي، بغضّ النظر عن الجوانب الأخرى التي ترتبط بسلوكه العام، وطريقة تعامله الاجتماعي،

وعن كيفية الاندماج مع الواقع الإنساني.

إنّ هذا الإعداد - يا ولدي - يسمّى إعداداً علميّاً وثقافة فكريّة محضة، إن اقتصرت عليها في حركتك التربويّة وأهملت الجانب الاجتماعي، فقد أهملت جانباً مهمّاً يرتبط بإعداد المجتمع رسالياً، وأفقدته مادة التفاعل الإسلامي مع الواقع، وسلبته اندفاعه في حركة التغيير بالاتّجاه الصالح لهذا الواقع.

الثاني: أسلوب التربية الاجتماعيّة، التي تعتمد السلوك العام موضوعاً للتوجيه والإعداد الجيّد، لأنّ أيّ شخص يتربّى على الحقائق العلميّة مجرّدة، فسوف يكون بمستوى ذلك العلم من الناحية العقلية.

بينما لا تكتفي التربية الإسلامية بالجانب العقلي للمتعلّم، بل لابُدّ من الدّخول إلى عمق العلاقات الاجتماعية له، ليكون في غاية الاستعداد للتفاعل مع القيم والمفاهيم الإسلامية العُليا لمعلّمه، وليأخذها زاداً أخلاقياً لبناء شخصيّته الاجتماعية الرسالية.

*****

كيفية الدخول إلى عواطف الآخرين

فبما أنّنا نعتقد - يا ولدي - بأنّ الأسلوب العلميّ المحض وحده غير كافٍ لبناء الشخصيّة الاجتماعية الرسالية الهادفة، فإنّنا نحتاج إلى تفعيل القيم والمبادئ والمفاهيم الأخلاقيّة العامّة في عواطف ومشاعر الأمّة.

فقد تسأل: ما هي الطريقة التي يستطيع بها المبلِّغ أن يدخل إلى عواطف الناس ومشاعرهم، ويثير الحسّ الإسلامي الرسالي لديهم؟.

نقول: هناك عدّة أمور كان قد اعتمدها المصلحون، وفي طليعتهم المعلّم الأوّل للأمّة، رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت تشكّل حجر الأساس لحركته من أجل البناء الاجتماعي.

فعليك أن تتّخذه - يا ولدي - قدوة في طريق التبليغ والإصلاح كما وجّهت الآية الكريمة بذلك في قوله تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا**﴾[1] وهذه الأمور التي عليك أن تعتمدها في طريق الإصلاح والتغيير هي:

(١) الأحزاب: ٢١

١- اعتماد القرآن والعترة منهجاً للتربية

وهما -في وحدتهما وتلازمهما- المنهج الذي خلّفه رسول الله ﷺ في الأمّة بقوله: «**إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، وهما كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما**»[1].

أمّا القرآن: فعليك -يا ولدي- أن تعتمده منهجاً للتربية، لأنّه المدرسة التربوية للبشريّة على امتداد وجودها، وللأمّة على تنوّع قضاياها وخصائصها، بما يمتاز به من تناغمٍ وتفاعل مع أعماق العاطفة الإنسانيّة.

عن الإمام الرضا عليه السلام، عن أبيه عليه السلام: أنّ رجلاً سأل أبا عبد الله عليه السلام: ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلّا غضاضة؟ فقال عليه السلام: «**إنّ الله تعالى لم يجعله لزمانٍ دون زمان ولا لناس دون ناس، فهو في كلّ زمان**

---

(١) العلامة المجلسي رحمه الله - بحار الأنوار: ٢٩ / ٣٤٠

جديد، وعند كلّ قومٍ غضّ إلى يوم القيامة»[1].

فقد تبنّى أسلوب المزج بين دلائل القدرة والحكمة والإبداع الإلهي، وبين جلائل النعمة والعطاء الرّباني، لإعطاء الفكر حقّه من العلم والمعرفة بأسرار الوجود الكونيّ من ناحية، وتعبئة العاطفة الإنسانية باتّجاه خدمة الرّسالة من ناحية أخرى.

فالقرآن يتحدّث مع الفكر والعاطفة في آنٍ واحد، ليربط الإنسان بالرّسالة عقيدة وإيماناً، كما يربطه بالرسالة حركة واندفاعاً وتفانياً في واقع التطبيق.

فبإمكانك - يا ولدي - أن تتابع منهج التعليم القرآني، الذي يدعوك أن تعيش القرآن في الفكر وفي العاطفة معًا، وأن تدعو الناس ليعيشوا هذا الجوّ القرآني الذي يحمل للأمّة حديث الوجدان، وأن تتّخذه برنامجاً تربوياً للواقع الاجتماعي على امتداد تأريخه.

لأنّ القرآن يحدّثك عن المفاهيم التي ترتبط بالطبيعة الإنسانية للإنسان، ويرسم لها منهج تربيتها وتكاملها على امتداد العصور والأزمان، ويحضرني مضمون حديث للإمام محمد الباقر عليه السلام يقول فيه:

---

(١) الشيخ الطوسي رحمه الله - الأمالي: ص ٨٥

«لو أنّ القرآن إذا نزل في قومٍ اختصّ بهم لمات القرآن لأنّ القوم ماتوا، ولكنّه يجري مجرى الليل والنهار والشمس والقمر».

فانظر - يا ولدي - إلى الإشارة الرائعة في حديث الإمام الباقر عليه السلام وهي: أنّ القرآن في أيّة مرحلة زمنية، يبقى يتحرّك في كلّ شرايين الحياة، وفي كيان الأمة. وهو ضرورة حياتية دائمة، كضرورة الليل والنّهار، يمدّ وجود الأمّة بالنور والطاقة والحيويّة والحركة.

فإنّه كالشمس والقمر الذين يمدّان هذا الوجود بالنور والطاقة والحياة والحركة، فعليك أن تستثمر هذه الثروة لإثراء الوجود الاجتماعي في كلّ أبعاده.

فهو يتّجه بالعقل والتفكير الإنساني نحو الله عزّوجلّ **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**[1].

ويتّجه بالسلوك الإنساني باتّجاه القيم والمُثل العليا، من خلال الاقتداء برموز الهدى والاستقامة، ولوامع التأريخ العالية، وأمثلته السامية **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾**[2].

---

(١) آل عمران: ١٩١ .

(٢) الأنعام: ٩٠

ويتّجه بالعاطفة الإنسانية، باتّجاه الحبّ لكلّ منبع من منابع الخير والعطاء، ابتداءً بأهل البيت عليهم السلام وانتهاءً بالعلماء والمصلحين وأهل طاعة الله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾[1].

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ..﴾[2].

وأمّا العترة - يا ولدي - فهي تعني أهل بيت الوحي الذين اصطفاهم الله عزّوجلّ حفظةً لدينه وكتابه، وأمناء على وحيه وشريعته، فإنّهم المعين الذي يمدّ الحياة بالبركة والطهر، ويهبها بهاءً وجمالاً بما يحملون من طهر القرآن وعلومه ومحتواه وبركته وبهائه وجماله، ما تزوّد أحدٌ من علومهم إلّا زاده الله تعالى بهاءً وجمالاً وعزّاً في الناس ودخل إلى قلب كلّ ذي قلب.

وكما جاء عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**رحم الله عبداً حبّبنا إلى الناس ولم يبغّضنا إليهم، أما والله لو يروون محاسن كلامنا لكانوا به أعزّ، وما استطاع أحدٌ أن يتعلّق عليهم بشيء، ولكنّ**

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) التوبة: ٧١.

أحدهم يسمع الكلمة فيحطّ إليها عشراً»[١].

وعن عبد السلام بن صالح الهروي، قال: سمعت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام، يقول: «**رحم الله عبداً أحيى أمرنا**، فقلت له: وكيف يحيي أمركم؟ قال: **يتعلّم علومنا ويعلّمها الناس، فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا..**»[٢].

*****

(١) الشيخ الكليني - رحمه الله - الكافي: ١/ ٢٢٩

(٢) الشيخ الصدوق - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢ / ٢٧٥

٢- خلق القدوة الصالحة من ذاتك

وعليك - يا ولدي - بتعليم نفسك قبل تعليم غيرك، قال الإمام علي عليه السلام: «**من نصب نفسه إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه في سيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلّم الناس ومؤدّبهم**»[1]، حيث ينطلق المبلِّغ الرسالي في ساحة الإصلاح والتغيير من منطلقَيْن:

أ - منطلق البيان والقول الصّادق السديد الذي يوجّه ويحرّك أفكار الناس ومشاعرهم باتّجاه الحقّ.

ب - منطلق الفعل والسلوك الذي يعكس المفاهيم والمبادئ والقيم التي تعيش في أعماق الناس وتصوّراتهم، إذ لا يكتفي المتعلّم بالكلمة أن تقوده في حركته كما لو قادته الشخصية القدوة في السلوك والعمل والنشاط، لأنّ الكلمة قد تكون خيالاً من الخيالات، ومبالغةً من المبالغات.

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٢ / ٥٦

فقد تعطي الكلمة دون مضمونها وبالعكس، عدا الكلمة التي تعطي صورة النموذج التاريخي لقائد من القادة المعصومين الأطهار عليهم السلام الذين يحتلّون مساحة واسعة من التاريخ، فهنا تذوب الكلمة وتفنى في الذوات الطاهرة، فيكون نظر المتعلّم منصبّاً على النموذج القدوة.

ومن هنا فإنّ المبلِّغ نفسه، ومن أجل أن يخلق من ذاته القدوة للمتعلّم، عليه أن يستفيد من هذه النماذج التي تتحرّك في الموقع الإيجابي، ولا يتمّ هذا إلّا أن يتحرّك هو تحرّكاً إيجابياً، لأنّ الذي يتحرّك تحرّكاً سلبيّاً لا يتحرّك في إطار الموقع المسؤول، لذا فإنّه لا يستفيد ممّن يتحرّكون في الموقع الإيجابي.

وفي مصباح الشريعة: «**العالم حقّاً هو الذي تنطق عنه أعماله الصالحة، وأوراده الزكيّة، وصدقه وتقواه، لا لسانه وتصاوله ودعواه، ولقد كان يطلب هذا العلم في غير هذا الزمان، من كان فيه عقل، ونسك، وحكمة، وحياء، وخشية، وأنا أرى طالبه اليوم من ليس من ذلك شيء..**»[1].

وعلى هذا الأساس -يا ولدي- فلابُدّ أن ينسجم لديك القول

(١) الشيخ عباس القمي - سفينة البحار: ٦ / ٣٥٤.

والعمل في ساحة التغيير، وأن لا يـزدوج في شخصيتك الإيجاب والسلب في آنٍ واحد، حيث تجتمع فيك إيجابية القول وسلبية الفعل، وذلك عندما يخالف قولك عملك، فيتوجّه إليك التقريع الإلهي: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ**﴾[1].

أي: أيّها المؤمن، لماذا لا تتحرّك مبادئ هذه الرّسالة في حياتك؟، ولماذا لا تتفاعل مبادئها في ذاتك وفكرك وسلوكك قبل كلّ شيء؟، ولماذا لا تهذّب نفسك على ضوء مفاهيمها وقيمها، وتأتمر بأوامرها قبل أن تأمر غيرك، وتنتهي بنواهيها قبل أن تنهى غيرك، لتكون بنفسك قدوة للآخرين؟، وإليك ما نظمه أبو الأسود الدؤلي حيث قال:

يـا أيّهـا الـرّجـلُ المـعـلّـمُ غـيرَه
هـلّا لـنـفسِك كـان ذا التعليمُ
تصف الدّواء لذي السقام وذي الضنى
كـيـما يـصـحّ بـه وأنـت سـقـيـمُ
ونـراك تُصلح بـالـرّشـاد عقولَنا
أبـداً وأنـت مـن الـرّشـادِ عـديـمُ

(١) الصف: ٢ - ٣.

فـابـدأ بنفسك وانهَـهـا عـن غيّها
فـإذا انـتـهـت عـنـه فـأنـت حكيمُ
فهناك يُسمَع مـا تـقـول ويُهتدى
بـالـقـول مـنـك ويـنـفـع التعليمُ
لا تـنـهَ عـن خُـلُـقٍ وتـأتيَ مثله
عـارٌ عـلـيـك إذا فـعـلـت عظيمُ

ذُكِر أنّه اشتكت أمةٌ خادمةٌ إلى رسول الله ﷺ تعبها وأذاها من الخدمة عند سيّدها، وطلبت منه أن يأمر سيّدها بأن يعتقها، فأجابها ﷺ بالقبول، فمضت، وكانت تنتظر ولم يتحقّق ما وعدها، ثم عادت بعد فترة من الزمن لتؤكّد عليه ذلك.

وهكذا عادت في المرة الأخرى لتؤكّد عليه ذلك، حتى تمّ تنفيذ طلبها، فلمّا أُعتقت جاءت إلى رسول الله ﷺ لتشكره، ثم سألته قائلة: لماذا تأخّر طلبي يا رسول الله؟.

فقال ﷺ -ما مؤدّاه-: كان ذلك لأنّي كنت مهتمّاً بالحصول على مبلغ من المال لشراء رقبة لأعتقها قبل توجيه الأمر لسيّدك بعتقك.

لأنّي لا آمر بشيء حتى أكون أوّل من يأتمر به، ولا أنهى عن شيء إلّا وأنا أوّل من ينتهي عنه.

إنّ اقتداءك - يا ولدي - برسول الله والقادة من أهل بيته صلوات الله عليه وعليهم، فيه دلالة على أنّ قولك لا يخالف عملك، فتكون أحقّ بالإجلال والتكريم والمحبّة من قبل الله عزّوجلّ، فيزرع في قلوب الناس محبّتك، ويؤسّس لك موقعاً في عمق كلّ ضمير وكلّ قلب يتوق اليك ويتطلّع إلى علمك وثقافتك وهداك.

كما أسّس الله تعالى محبّة القادة المصلحين من أهل البيت عليهم السلام في أفئدة الناس، بما قدّموا لله عزّوجلّ، وللرّسالة والأمّة، من جهدهم وجهادهم وعنائهم وصبرهم، فتحقّقت فيهم دعوة أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[1].

*****

(١) إبراهيم: ٣٧

٣- خلق القدوات الصّالحة من محيطك

وعليك - يا ولدي - أن تهتمّ بتربية ثلّةٍ من المؤمنين الأمناء الأوفياء لدينهم، وتغذّيهم بالمفاهيم التربوية، ليكونوا لك عوناً وسواعد، كما ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله:

«عليكم بالإخوان فإنّهم عدّة الدّنيا والآخرة، ألا تسمع إلى قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنا مِنْ شافِعِينَ ۞ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾» الشعراء: ١٠٠-١٠١)[1].

كما أنّ الثلّة المؤمنة المختارة لديك يفترض أن تمثّل مجموعة من القدوات غير العاديّة، التي تتحرّك في الوسط الاجتماعي الذي أنت فيه، وتشكّل الدليل على كفاءتك وقدرتك على الإعداد والتربية، لا من باب الدّعاية الإعلاميّة بغير حقّ، بل من باب الحماية للمكاسب والنتائج التي تحقّقها حركتك.

فقد جرت على ذلك سيرة المصلحين من قبل، على مستوى

---

(١) الشيخ الطبرسي - مشكاة النوار: ٢ / ١٠.

أصحاب الرّسالات من الأنبياء والأوصياء، ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ قالَ الحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

فكان تكوين مثل هذه الجماعات، من أجل أن يشكّل وجودهم عاملاً للتزكية، والثقة، والنصرة، والاستشارة، ودراسة المحيط الذي يتحرّك فيه المبلّغ.

خصوصاً وأنّ الدّعوات الإصلاحية، والنهضات التغييرية، تتحرّك دائماً في طريق شائك، مملوء بالعناء والأذى، فتحتاج إلى الأعوان والأنصار المخلصين.

كما أنّ القدوات الذين هم نتاج الجهود المتواصلة البنّاءة من قبل المبلّغ، يعتبرون النافذة التي ينفذ المبلّغ عبرها إلى عواطف الناس ومشاعرهم، بما يقدّمونه من تقييم لمشاريعه وجهوده ونتاجه، خصوصاً إذا كان هؤلاء من ذوي القيمة والمكانة الاجتماعية المرموقة في أعين الناس.

*****

(١) آل عمران: ٥٢.

٤ - السخاء وبذل المعروف للمتعلّم

إعلم - يا ولدي - أنّه كما ينبغي أن تكون سخيّاً بعلمك في تعليم الجاهل، وهداية الضّال، وتبصير الغافل، فينبغي أنْ تكون سخيّاً بمعروفك ومبادراتك في إسعاف الضّعيف، وإغاثة المكروب، وتفريج همّ المهموم ما استطعت، كما قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**مَنْ كثُر إحسانُه أحبّه إخوانُه**»(١).

وعنه عليه السلام: «**احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغنِ عمّن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره**»(٢).

فلا يعني كون المؤمن محسناً، وباذلاً للخير في حدود النصيحة والتوجيه، وشحذ الفكر بالحكم والمواعظ فحسب، بل هناك من المعروف ما يغذّي المشاعر الإنسانية، ويلهب العواطف بالحبّ لك ولرسالتك.

---

(١) أبو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ح / ٨٤٧٣.

(٢) أبو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ح / ٢٢٢٧

وهو: أن تحسن للناس ما استطعت، ولا يحملك على ترك الإحسان كثرة الإساءة إليك، بل تذكّر هنا ما قاله إمام المحسنين علي أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «**يا بنيّ نحن أهل بيت لا نزداد على الذنب إلينا إلّا كرماً وعفواً**»[١].

وقال عليه السلام: «**ألا وإنّي مخصوصٌ في القرآن بأسماء، احذروا أن تغلبوا عليها فتضلّوا في دينكم، أنا المحسن، يقول الله عزّوجلّ: ﴿إِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾** النحل: ١٢٨»[٢].

ففي ذلك عمليّة دفعٍ منه (عليه السلام) لأتباعه وشيعته، أن يكونوا في نطاق حركته وعلى خطى مسيرته التغييريّة، تلك المسيرة التي كانت تعتمد البذل والعطاء في كلّ وجوهه وأنحائه.

سواءً على مستوى بذل العلم والحكمة، أو بذل المال والجاه، أو بذل الخلق والابتسامة والرّحمة، فكلّ ذلك من وجوه المعروف والإحسان الذي يتطلّب بذله للناس.

*****

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٤٢ / ٢٨٧.

(٢) محمد الريشهري - ميزان الحكمة: ٢ / ٣٠٤

٥- الصبر ولين الطبع

وعليك - يا ولدي - بالصّبر وسعة الصّدر، وأن تفتح صدرك لكلّ قضية من قضايا الناس، وأن تصبر على لجاجة البعض، وتتحمّل كلّ ما يواجهك من جهل الجاهل، وتحامل المغرض، وإسفاف المتطفّل المتطاول، فإنّ للناس رغباتٍ وأهواء وأمزجة شتّى، ممّا يجعلك -كأيّ أحدٍ من أصحاب المسؤوليات- عرضةً لثورة الغضب والانفعالات والعصبيّات والطعون، ولكنّ النّجاح في القدرة على التحمّل.

وأذكر لك ما ورد في منية المريد عن النبيﷺ: أنّ موسى عليه السلام لقي الخضر عليه السلام فقال **أوصني**، فقال الخضر: **يا طالب العلم إنّ القائل أقلّ ملالةً من المستمع فلا تملّ من جلسائك إذا حدّثتهم**... إلى أن قال:

يا موسى وطّن نفسك على الصبر تلقَ الحلم، واشعر قلبك بالتقوى تنل العلم، ورضِّ -أو وروّضْ- نفسك على الصبر تخلص من الإثم،... إلى قوله: وأعرض عن الجهّال واحلم عن السفهاء، فإنّ ذلك فضل الحلماء وزين العلماء، وإذا شتمك الجاهل فاسكتْ عنه سلماً، وجانبه

حزماً، فإنّ ما بقي من جهله عليك وشتمه إيّاك أكثر[١].

فلقد كان قادة الرّسالات السماويّة، من قبل -خصوصاً قادة الإسلام- يُبتلون في أموالهم وفي أنفسهم، ويسمعون من الناس الأذى، كما نبّه إلى ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾[٢].

فبعد أن حدّد مصدر الابتلاء من فريقين من الناس، هما:

أ - الذين أوتوا الكتاب، وهم الصّنف الذين يعدّون أنفسهم في عداد حَمَلة الرّسالة، ويزعمون أنّهم الممثّلون لسلطة السّماء، والداعون إلى الله عزّوجلّ.

ب - الذين أشركوا، وهم الذين ركنوا إلى حبّ المال والثراء، وتمحّضوا إلى عبادة الدنيا والأهواء من دون الله عزّوجلّ.

فبعد هذا التحديد، يقرّر القرآن الكريم أنّ العلاج لهذا الموقف يتمثّل في الصبر والتقوى «**فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**».

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الانوار: ١/ ٢٢٦- ٢٢٧.

(٢) آل عمران: ١٨٦.

لذا جاء في غرر الحكم: «**آلة الرئاسة سعة الصّدر**»، فإنّه بسعة الصّدر يمتلك المبلِّغ السّيطرة على ساحة الواقع، وقد خاطب الله تعالى رسوله الكريمﷺ، ملفتاً نظر كلّ داعية مصلح إلى سرّ نجاحه في خطّ التربية الإسلامية، بقوله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[1].

جاء أعرابي إلى رسول اللهﷺ يسأله فأعطاه شيئاً، ثم قال له: **أحسنتُ إليك؟** قال الأعرابي: لا، ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم رسول اللهﷺ أن كفّوا عنه.

فقامﷺ فدخل منزله، ودعا الأعرابي فزاده شيئاً، فرضي بالعطاء، فقال لهﷺ: **جئتنا فسألتنا فأعطيناك، وقلت ما قلت فينا، وفي أنفس المسلمين منك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك.**

قال الأعرابي: نعم يا رسول الله، فلمّا كان الغداة أو العشي، جاء الأعرابي معتذراً من الخطأ، معترفاً بالفضل.

فقال رسول اللهﷺ لأصحابه: **إنّ صاحبكم هذا كان جائعاً، فسألنا فأعطيناه، فقال ما قال فينا، فدعوناه إلى البيت فأعطيناه فزعم أنّه**

(١) آل عمران: ١٥٩

رضي، أهكذا -السؤال موجّه إلى الأعرابيّ-؟.

قال الأعرابي: نعم.. فجزاك الله من أهلٍ وعشيرة خيراً يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: **ألا إنّ مثلي ومثل هذا الأعرابي، كمثل رجلٍ كانت له ناقة فشردت منه، فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلّا نفوراً فناداهم صاحبها: خلّوا بيني وبين ناقتي، فأنا أرفق بها.**

فتوجّه إليها صاحبها، وأخذ لها من قمام الأرض فجاءت فاستناخت فشدّ عليها رحلها واستوى عليها، وإنّي لو تركتكم حين قال الرّجل ما قال، فقتلتموه دخل النار»[1].

*****

(١) ابن الجوزي - الوفاء بحقّ المصطفى: ٢ / ٨٢ - ٨٣

ما يُستوحى من الموقف

وممّا حدث في هذه التجربة، وغيرها من التجارب التأريخية للقادة المعصومين عليهم السلام، والأولياء والمصلحين، نستوحي عدّة أمور جديرة بالملاحظة:

أوّلاً: ينبغي للشخصية القياديّة، أن تراقب تصرّفات وتحرّكات الناس، وكيفيّة تعاملهم مع المشاكل والقضايا، فلو تُرِكوا يتصرّفون بما تُملي عليهم الأمزجة والعصبيّات والأهواء، فستخسر الأمّة الكثير من المصالح.

ثانياً: إنّ أيّ موقف من المواقف السلبية تجاهك، ومن أيّ من الناس، لابُدّ من دراسة أبعاده وأسبابه وحجمه، وحجم صاحب الموقف ومدى خطره، ولابُدّ من التأنّي في اتّخاذ الموقف تجاهه، كما عن لقمان: «**أَلْزِمْ نَفسَكَ التُّؤَدَّة** -التأنّي- **في أُمورِك**»[1]، لغرض علاج الأمر بما يتناسب معه من طرق العلاج.

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ١٣ / ٤١٩

وعن الإمام أمير المؤمنين عليعليه السلام: «**التأنّي في الفعل يؤمن الخطل، والتروّي في القول يؤمن الزلل**»[1]. لأنّ التأنّي -يا ولدي- يحدّد موقفك من المشكلة الواقعة في أحد موقفين:

فإنّك إمّا أن تقف من المشكلة من أجل نفسك وذاتك، وإمّا أن تقف منها انتصاراً لدينك ورسالتك، فانظر أيّ الموقفين تختاره؟، فقطعاً لا يرضى لك إيمانك، ووعيك للمسؤولية، وحرصك على رسالتك إلّا بالموقف الثاني.

ثالثاً: في الحالة التي تكون المشكلة شخصية بين إنسان وآخر، على الآخر أن لا يتدخّل في ما لا يعنيه، وعلى صاحب المشكلة أن يعالجها بنفسه، دون السماح لأيّ طرف من الأطراف بالتدخّل في صميم المشكلة، لكي لا تتّسع دائرتها أو تتعقّد وتستعصي على الحلّ.

لذا جاء في عرضٍ واسعٍ لصفات المؤمن، عن الإمام أمير المؤمنينعليه السلام، فكان منها قوله: «**شفيق وصول، حليم خمول، قليل الفضول، راضٍ عن الله عزّوجلّ، مخالف لهواه، لا يغلظ على من يؤذيه، ولا يخوض في ما لا يعنيه، ناصر للدين، محامٍ عن المؤمنين....**

---

(١) محمد الريشهري - ميزان الحكمة: ٢ / ٤٧.

الحديث»[١]، أمّا المشكلة ذات المردود العام فقد تحتاج إلى تظافر الجهود لحلّها.

رابعاً: إنّ علاج أيّة مشكلة انفعالية، لا يتمّ عن طريق الانفعال نفسه، وإنّما يحتاج إلى عملية تطويق علمية حكيمة، تتّسع لكلّ أبعاد تلك المشكلة، وتحتوي كلّ آثارها وانعكاساتها على الغير، لتعيد مياه المحبّة التي نضبت بالانفعال والغضب.

عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام -في حديث طويل- قال: «**واعلموا أنّه ليس منّا من لم يملك نفسه عند الغضب، وليس منّا من لم يحسن صحبة من صحبه ومرافقة من رافقه**....الحديث»[٢].

خامساً: على المعلّم أن يترك للمسيء إليه مجالاً للاعتذار الاختياري، قبل مؤاخذته بما صدر منه، بلا أن يقسره على الاعتذار بالخوف، قال الإمام الحسن عليه السلام: «**لا تعاجل الذنب بالعقوبة، واجعل بينهما للاعتذار طريقاً**»[٣].

لذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله بمعروفه ولين طبعه، يحظى بتعريف المسيء

---

(١) أعلام الدين في صفات المؤمنين: ٩ / ٨

(٢) الشيخ الطبرسي - مشكاة الأنوار: ١ / ١٤٨

(٣) محمد الريشهري - ميزان الحكمة: ٣ / ٨٠ .

بالخطأ، ويجعله يعتذر له من تلقاء نفسه، كما فعل الأعرابي في ما سبق ذكره من قصته، حين أراد منه أن يعتذر بين يدي أصحابه كذلك، لإزالة ما في أنفسهم من غلٍّ عليه، قال له: «فإنْ أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي».

وللإمام زين العابدين عليه السلام قوله: «**أمّا حقّ رعيّتك بالعلم، فأن تعلم أنّ الله عزّوجلّ إنّما جعلك قيّماً فيما آتاك من العلم، وفتح لك خزائنه، فإن أحسنت في تعليم الناس ولم تخرق بهم، ولم تضجر عليهم زادك الله من فضله**»[1].

نستوحي من هذه الكلمات - يا ولدي - أنّ الله عزّوجلّ، بما وهبك من نعمة العلم والفهم، جعلك قيّماً في الناس، وكلمة قيّم: مأخوذة من القيمة والقدر، فإنّ القيمومة تعني: أنّ الله عزّوجلّ ما أقامك راعياً ومسؤولاً، إلّا بعد أن زادك قيمةً وقدراً بما فتح لك من خزائنه ومواهبه.

فكما أنّ القيّم على الزوجة والأولاد بما آتاه الله من القوّة والمال وحسن التدبير، قد فرض الله عليه أن يراعي حقّ هذه القيمومة فيهم، فلا يخرق عليهم، ولا يضجر من رعايتهم بالحبّ والعطف عليهم، والتعايش مع مشاكلهم.

---

(١) عوالي اللآلي: ٤ / ٧٤

فكذلك بصفتك القيّم على المتعلّمين -يا ولدي- بما وهبك الله عزّوجلّ من العلم، فإنّ عليك أن تراعي حقّ القيمومة فيهم، وأن تتعايش مع قضاياهم ومشاكلهم، وتتدخّل في حلّها، انطلاقاً من القاعدة التي تمتلكها من واقع رسالتك «**ما من واقعةٍ إلّا ولله فيها حكم**».

وعليك - يا ولدي - أن تعرف أنّ الجاهل، هو متعطّش إلى العلم والمعرفة، كاليتيم المتعطّش إلى حنان الأب، كما قال الشاعر:

ليس اليتيم الـذي قد مـات والـده
إنّ اليتيم يتيم العـلـم والأدب

وليس هناك يُتمٌ كيتم المؤمن في حال انقطاعه عن علوم أهل البيت عليهم السلام.

لذا فإنّ المتطلّعين إلى علمك، هم بمنزلة اليتامى الذين انقطعوا عن آبائهم الذين هم أئمّة أهل البيت عليهم السلام، ودخلوا في كفالتك، فجُعِلْتَ القيّم عليهم، فكان لزاماً عليك أن تتولّى هدايتهم إلى الشريعة بالحنان والحبّ واللين والرحمة.

روي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، أنّه قال: حدّثني أبي عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**أشدّ من يُتْم اليتيم الذي انقطع عن أمّه وأبيه، يُتْم يتيمٍ انقطع عن إمامه، ولا يقدر على الوصول إليه،**

ولا يدري كيف حكمه فيما يُبتلى به من شرائع دينه، ألا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا، وهذا الجاهل بشريعتنا المنقطع عن مشاهدتنا يتيمٌ في حجره، ألا فمن هداه وأرشده وعلّمه شريعتنا كان معنا في الرفيق الأعلى»[1].

*****

١) العلامة المجلسي - عين الحياة:١ / ٢٧٤.

٦- مشاركة الناس والتواضع لهم

وعليك - يا ولدي - بالاندماج والتعايش مع الناس في مشاعرهم، وفي أفراحهم وأتراحهم، وفي مباهجهم ومتاعبهم ومشاريعهم، انطلاقاً ممّا تحمله لك رسالة العلم من رصيد أخلاقي عالٍ، وهو ما يُستوحى من النصوص الإسلامية، كما جاء عن رسول الله ﷺ: «**من طلب العلم لله، لم يصب منه باباً إلّا ازداد في نفسه ذلّاً، وفي الناس تواضعاً، ولله خوفاً، وفي الدين اجتهاداً..**»[1].

واعلم -يا ولدي- أنّ ما يدعو العالم -أحياناً- إلى خلق الحاجز بينه وبين الناس هو غروره العلميّ، وتعاليه عن الناس، وبعده عن الأسس والمفاهيم الفكرية، التي تنبع من صميم رسالته العلمية، ومنها مبدأ التواضع للمتعلّمين، وخفض الجناح لهم.

فقد يُمنح الإنسان العلم والثقافة والقدرة على تسنّم هرم الحياة، فيتحوّل جهده وذكاؤه وعلمه وثقافته وقدرته على التخطيط والإبداع،

---

(١) الشيخ الطبرسي - مشكاة الأنوار: ١ / ٣٠٥.

إلى سلوكٍ أنانيّ، وهذا من أخطر عوامل الهدم والتخريب -يا ولدي- لأنّ الـ(أنا) ينتهي بالإنسان إلى ثلاثة أنماط من السلوك والتعامل:

أ - الاستبداد بالرأي، وتجاهل آراء الآخرين بعيداً عن الحكمة القائلة: «**من شاور الناس شاركهم في عقولهم**»، فلو ساد هذا الخُلُق الإسلامي لانتهت الأمّة إلى الرأي الأصوب والأجدى في هذا الموقف أو ذاك.

ب - النهم السلطوي، وهي الدكتاتوريّة واحتكار المقام والمركز الاجتماعي، فكما تتجسّد الأنانية باحتكار الطعام والدّواء ومصادرة مصالح الأمّة في المجال الاقتصادي، فكذلك تتجسّد الأنانية في احتكار الرأي وعدم فسح المجال أمام الطاقات والإمكانات التي يمتلكها الغير.

ج - الحسد، وهو مظهرٌ من مظاهر السلوك الأنانيّ، لأنّ الحسود هو الذي لا يستطيع أن يرى أحداً من الناس ينعم بالخير، ولا يحبّ لغيره التفوّق الفكري أو الاجتماعي أو السياسي.

فهو بدلاً من أن يقوم بأسلوب المنافسة المشروعة، تراه يدخل في عملية تخريب وهدم لكيان الآخرين، وإسقاط كلّ الاعتبارات التي تمتّ إلى بناء شأنهم.

لذلك اتّجهت النصوص إلى تنمية خلق التواضع في نفس الطالب الحوزتي منذ أوّل خطوة على الطريق.

قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**تواضعوا لمن تتعلّمون منه ولمن تعلّمونه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم جهلكم بعلمكم**»[1].

وقال المسيح عليه السلام للحواريّين: «**يا معشر الحواريّين لي إليكم حاجة أقضوها لي**» قالوا: قُضِيت حاجتُك يا روح الله، فقام فغسل أقدامهم، فقالوا: نحن أحقّ بهذا يا روح الله،فقال: «**إنّ أحقّ الناس بالخدمة العالم**».

أي: أنْ يخدمَ غيره (**إنّما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم**)، ثم قال عيسى عليه السلام: «**بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبّر، كذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل**»[2].

فعلى الداعية المصلح -يا ولدي- أن يشعر بأنّه جزءٌ من الأمّة يُسعده ما يُسعدها، ويؤلمه ما يؤلمها، فتتحسّس منه الأمّة تجاوباً صميمياً مع مشاعرها وأحاسيسها، لأنّ ذلك سوف يكون له الأثر الكبير في مسيرة الإصلاح والتغيير.

---

(١) أبو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ح / ٤٥٤٣.

(٢) الشيخ عباس القمي - سفينة البحار: ٦ / ٣٦٠.

لذلك انصبّت جهود الأنظمة الظالمة المستبدّة، وذيولها العميلة، على إغراق الشعوب المسلمة بسيل من المشاكل والأذى والمعاناة، وإثارة الخلافات، وترويج الانطباعات السيّئة على علماء الإسلام، بهدف خلق حالةٍ من الإرباك والإشغال، وزرع الفجوة بين الأمّة وقادتها المصلحين، وغلق الطريق عن التأثير فيها.

*****

٧ - أن تفتح قلبك للنقد البنّاء

فعليك - يا ولدي - أن تحسب للنقد حساباً لأيّ خطأ في قولك، أو في فعلك، أو في أيّ موقف من مواقفك، أو ظاهرة تبدو على تصرّفك.

وليكن مفهوماً لديك أنّ المبلِّغ لم يُرسل معصوماً من كلّ خطأ، ولا عالماً مطلقاً بكلّ شيء، ولا دكتاتوريّاً مستبدّاً، بل على المبلِّغ المصلح، أن يكون أوّل المبادرين إلى نقد ذاته.

وهو ما نستوحيه من كلام الإمام الحسين عليه السلام: «**من دلائل العالم انتقادُه لحديثه، وعلمُه بحقائق فنون النظر**»[1].

ومن كلام الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام بهذا الصدد قال فيه:

«**العالم من عرف أنّ ما يعلم فيما لا يعلم قليل، فعدّ نفسه بذلك جاهلاً، فازداد بما عرف من ذلك في طلب العلم اجتهاداً، فما يزال للعلم طالباً، وفيه راغباً، وله مستفيداً، ولأهله خاشعاً مهتمّاً، وللصّمت لازماً،**

(١) الشيخ علي النمازي - مستدرك سفينة البحار: ١ / ٢٧١

وللخطأ حاذراً، ومنه مستجيباً، وإن ورد عليه ما لا يعرف لم ينكر ذلك لما قرّر عليه من الجهالة»[١].

وجاء في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة: «**إلهي أنا الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي**»[٢].

يُعلّمك هذا المنهج - يا ولدي - أن تعتقد أنّ هناك أخطاء قد تقع فيها بقصد أو بدون قصد. فلا ينبغي أن تُكابر في نفيها عن نفسك، فإنّ من لم يتّهم نفسه بالخطأ والجهل سيعدُّ خطأه صواباً، ويحسب جهله علماً، كما أنّه لا يستطيع أنْ يتكامل في مسيرته، وبالتالي لا يستطيع أن يصلح الخطأ أو يسدّ الخلل في الأمّة.

فإذا أردت أن يكتمل شوطك الرّسالي بنجاح وتدخل في ضمير المتعلّمين منك، فعليك أن تكون في غاية الدقّة والضبط، ولا تتعجّل البتّ فيما تُعطيه من أحكام رسالتك في شؤون حياة الناس، لأنّ ذلك خلاف الورع.

عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «**إنّ الله عيّر عباده بآيتَيْن من كتابه: أن لا يقولوا حتى يعلموا، ولا يردّوا ما لم يعلموا، قال الله**

---

(١) الحراني - تحف العقول: ص ٧٣.

(٢) كلمات الإمام الحسين (عليه السلام) للشريفي: ٢ / ٢٧١.

عزّوجلّ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى الله إِلَّا الحَقَّ﴾[١]. وقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾- يونس: ٣٩-»[٢].

وقال الإمام علي عليه السلام: «**من كان يقول في ما لا يعلم: الله ورسوله أعلم، فهذا ورعٌ عالم**»[٣].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «**إذا جلست إلى عالم فكنْ على أنْ تسمع أحرصَ منك على أنْ تقول، وتعلّم حسن الاستماع كما تتعلّم حسن القول، ولا تقطع على أحدٍ حديثه**»[٤].

وعن زرارة بن أعين، قال: سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام: ما حقّ الله على العباد؟ قال: «**أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عند ما لا يعلمون**»[٥].

فلا تعتدّ بنفسك - يا ولدي - في إعطاء الفتوى، وإن كانت الثقة بالنفس من شروط الشخصية القيادية، إلّا إنّ بين الثقة بالنفس وبين الاعتداد بها خطّاً لا ينبغي تجاوزه:

(١) الأعراف: ١٦٩
(٢) الشيخ عباس القمي - سفينة البحار: ٦ / ٣٥٠.
(٣) الشيخ الطبرسي - مشكاة الأنوار: ١ / ٣٤٠.
(٤) العلامة المجلسي - بحار الانوار: ١ / ٢٢٢
(٥) الشيخ عباس القمي - سفينة البحار: ٦ / ٣٥٠.

١- إنّ الثقة بالنفس تمنح الشخصيّة القياديّة عنصر المثابرة والجدّ في سبيل تحقيق الهدف، بينما يُقعدها الاعتداد ويثبّطها عن إكمال دورها، ويوقعها في الأخطاء والمخالفات.

٢- ومن ناحية أخرى، تعني الثقة بالنفس، أن تستقلّ برأيك لا لرأيك، وبشخصك لا لشخصك، بل لما تحتّمه مصلحة رسالتك.

ولكن يبقى عليك - يا ولدي - أن تشدّ الناس إليك بإشراكهم في الرأي، وأخذ المشورة منهم فيما التبس عليك أمره، ولا تتغاضى عن قبول النّصح ممّن نصح لك، ولا تجعل ما بينك وبين الناس مبهماً من حركة أو سلوك، لأنّ نظر الناس للقدوة أنفذ من نظرهم لغيره من الناس، وإنّ هناك من يترصّد العثرات، ويتلمّس الذرائع للانتقاص.

*****

٨ - تفادي المسافة بين القول والعمل

فعليك - يا ولدي - أن لا تدخل في مفارقة بعيدة بين القول والعمل، بأن يكون قولك في دائرة وعملك في دائرة أخرى، خصوصاً في هذا الظرف الذي تتطلّع فيه الأمّة إلى الكثير من المشاريع والإنجازات.

مثال ذلك: أن تَعِدَ الناس بوعدٍ، وتمنّيهم بأمنية، وتملأهم ثقة واطمئناناً بأن تؤسّس لهم مشروعاً اجتماعيّاً، أو ثقافيّاً، أو اقتصاديّاً، ولكنّك لسبب وآخر، قد تعجز وتتنازل عن القمّة التي صوّرتها في دائرة معينة، إلى دائرة أخرى ليست بمستوى المطامح والآمال التي رسمتها للناس.

بينما كان المفروض - يا ولدي - أن تبدأ في عروضك ووعودك من أدنى ما يُمكنك، لكي تفاجئ الناس بما يسرّهم من النجاحات والإبداعات.

أي: حاول أن يكون قولك في حدودٍ أدنى من فعلك وإنجازك، لا العكس، أي: لا ينبغي أن يكون إنجازك وعملك في دائرةٍ أدنى من

دائرة قولك وتنظيرك.

وبالتالي فإنّ مثل هذا الموقف، يدعوك إلى البحث عن مبرّرات العجز، أو يقودك إلى الاعتذار للناس عمّا حدث من حالة الإحباط والتلكّؤ في إتمام هذا المشروع أو ذاك.

وبالرغم من أنّ الاعتذار الذي يحذّر منه المعصومون عليهم السلام، هو الاعتذار الذي يستتبع الوقوع في الإساءات والأخطاء بحقّ الفرد أو الجماعة، إلّا إنّ المطلوب أن يتوقّى المؤمن كلّ ما يوجب له الاعتذار ولو بنسبة ما.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**الاستغناء عن العذر أعزّ من الصدق فيه**»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه**»، قيل له: كيف يذلّ نفسه؟ قال عليه السلام: «**يتعرّض لما لا يُطيق فيذلّها**»[2].

*****

(١) نهج البلاغة: خ / ٣١٩.

(٢) الشيخ الطبرسي - مشكاة الأنوار: ٢ / ١٤٦.

٩- الانفتاح على الدائرة الإنسانية

عليك أنْ تعرف - يا ولدي - أنّ لكلّ دائرة من دوائر العمل والحركة، ما يتطلّبه من المواقف والأساليب، لذا فإنّ عملك التبليغي إمّا أنْ يكون في دائرة الأمّة المؤمنة، أو في دائرة الإنسانية العامّة.

فإنْ كان عملك في دائرة الأمّة المؤمنة، فإنّه يتطلّب منك أن تعي حاجة الناس إليك في نطاق هذه الدائرة، كما أوجزه لنا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«**أُنبئُكم بالفقيه، حقّ الفقيه: من لم يُرخص الناس في معاصي الله، ولم يُقنطهم من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكر الله تعالى، ولم يَدَع القرآن رغبةً إلى غيره**...الحديث»[1].

يرسم لك هذا النصّ منهجاً عملياً في حركتك التبليغية، وهو: أن تزرع حبّ الخير في نفوس الناس، وتدلّهم عليه، وتحرّكهم على العمل به، وأن تُشعرهم برحمة الله تعالى، وجسيم إنعامه عليهم، وتخلق الموازنة

---

(١) الشيخ الطبرسي - مشكاة الأنوار: ١ / ٣١٠.

بين الخوف والرجاء في نفوسهم وتفكيرهم وسلوكهم.

ولا تدع القرآن رغبةً عنه إلى غيره في أساليب الإصلاح والتغيير، فإنّه يملك أنجح الطرق، وأبلغ البيانات التي تناغم الفطرة، وتتفاعل مع الوجدان الإنساني.

أمّا إذا كانت حركتك في دائرة الإنسانية العامة، فاعلم أنّ هناك فطرة تنبض في ضمير الإنسان مهما كانت عقيدته وهي تنزع إلى اتّباع الحقّ، وتبحث عنه في كلّ مذهب وغاية.

فما عليك إلّا أن تنطلق في حركتك في هذه الدائرة، ممّا انطلق منه المعلّم الأوّل وقدوة القدوات رسول الله ﷺ من قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[1].

ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2].

فقد أجلى لنا رسول الله ﷺ معالم هذا التوجيه القرآني في سيرته

---

(١) الشورى: ١١.

(٢) آل عمران: ٦٤.

العملية، ومن خلال تعامله مع كافة الأديان والعقائد والأجناس البشرية، وهذه المعالم هي:

أ- لتكن دعوتك لرسالتك - يا ولدي - دعوةً خالصةً صادقة، واستقم على خطّها كما أمرك الله عزّوجلّ به من استقامة، ليكون التزامك ترجمةً عمليةً مستقيمة عالية، تجسّد كلّ فضيلة وكلّ حقّ تتضمّنه رسالتك.

ب - إن لم يؤمن بك الناس وبما تحمل لهم من معالم رسالتك، فلا ينبغي أن تستميلك أهواؤهم وإغراءاتهم وأمانيهم لك، لأنّ من الطبيعيّ إذا اجتمع الناس على رفض الحقّ استجابةً لأهوائهم، فإنّهم يحاولون التربّص بالداعية، من أجل حرفه عن أهدافه وغاياته الرسالية.

ج - إن لم يؤمنوا لك فلا تترك العدل فيهم، وليعرفوا أنّك منصف في حوارك وفي حركتك كما علّمتك رسالتك، ولا تتحاملْ على أحد، ولا تزدرِ بما يعمل وبما يفكّر الآخرون، وبما يتمسّكون به من عقيدة أو فكرة، ومدّ يدك إليهم بالسلام واللّين والرّحمة والاحترام ما لم ينصبوا لرسالتك العِداء والحرب، وليعرفوا أنّ رسالتك لا تقوم على أساس إلغاء الآخرين كما تفعل بعض الدّعوات والأفكار والمشاريع.

فلم تكن الرسالة لتأخذَ أثرها في النفوس إلّا منْ خلال نفس وشخصيّة مبلِّغها، التي كانت تفيض على الأمّة بشْراً وتفاؤلاً وحناناً،

لأنّ الناس ليسوا جميعاً بمستوى الفهم والاستيعاب للُغة الرسالة ومفاهيمها ليتعاملوا معها ويتقبّلوها -دائماً- من خلال قناعاتهم العقلية.

وإنّما من خلال فهمهم ووعيهم لقدر وقيمة الشخصية التي تحمل الرسالة وتتحرّك -عملياً- بمفاهيمها وقيمها وأخلاقها ومبادئها، ولم يكنْ رائد الرسالة ومبلِّغها -دائماً- من أهل الدنيا والثراء ليستجلب الناسَ بأمواله وجاهه، وإنّما يتعامل معهم بشفافيّة الروح ورقّة الطبع وسعة الصدر وطلاقة الوجه، كما هو المعهود في حركة الرسالة على يد رسول الله ﷺ، وهو القائل: «**إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فألقوهم بطلاقة الوجه وحسن البِشر**»[1].

د - ليكن نظرك دائماً إلى القواسم والثوابت المشتركة بينك وبين الآخرين لا إلى مواضع الخلاف.

فإن لم يشترك معك الآخرون في الالتزامات والمواقف العملية، فإنّهم يشتركون معك في العقيدة، وإن لم يشتركوا معك في كلّ خطوط العقيدة وأقرّوا بالله عزّوجلّ، فقل: ﴿**اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ**﴾[2]، إذ بعد هذا كلّه، لا ينبغي أن يبقى

(١) الشيخ الكليني - رحمه الله - الكافي: ١ / ١٠٣ .
(٢) الشورى: ١٥.

هناك احتجاجٌ بينك وبينهم، لأنّ كثرة الجدل والاحتجاج العقيم يوسّع الفجوة بين الأطراف المتحاججة.

أضفْ إلى ذلك - يا ولدي - أنّه لا ينبغي أنْ يشكّل الاختلاف في الفتوى والالتزام بينك وبين الآخرين خلافاً، لأنّ الفرق بين الاختلاف والخلاف، كالفرق بين عجلتين، إحداهما تسير بهدوء على طريقٍ معبّد، والأخرى تسير على طريقٍ ترابي متعرّج.

فإذا كان هناك اختلاف في وجهة نظر معيّنة، لا يعني بالضرورة أن يستلزم معه خلافاً يدعو إلى تصدّع البنية الاجتماعية، التي يجمعها ولو ثابتٌ واحد من ثوابت الرسالة.

فإذا كان منطق المبلِّغ - يا ولدي - مع أصحاب العقائد والأديان الأخرى، كما علّمه الرائد والمبلّغ الأوّل رسول الله ﷺ هو منطق اللين والرّحمة، فما هي لغته ومنطقه مع أبناء رسالته ودينه؟.

قطعاً أنّ لغته مع إخوانه في الدين، لابُدّ أن تكون أعمق إيجابيّة، وأكثر جدّيةً باتّجاه الأخوّة الصادقة، التي تتبنّى الحوار الموضوعي المنصف، حول أيّ موضع من مواضع الاختلاف.

*****

١٠- التمتّع بالوقار والسّكينة

إنّ الوقار - يا ولدي - هو الثقل والعظمة والرّزانة والثبات، ومن هنا قيل: الإيمان ما وقر في القلب، أي: قرّ وثبت، وهو -أي: الوقار- حقيقةٌ نابعة من إحساس المؤمن بعظمة ربّه عزّوجلّ، ووقاره، وهيبته.

لذلك خاطب نوح عليه السلام قومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[1]. أي: ما لكم لا تخافون عظمته، وما لكم لا تخشون مقامه؟.

وبما أنّ الوقار هو: من أخلاق الله عزّوجلّ، التي ترشّحت في شخصيات أنبيائه وأوليائه عليهم السلام فأكسبتهم المنعة والقوّة.

فإنّ العالم المصلح - يا ولدي - أولى وأحقّ بخلق الوقار والسّكينة، وأجدر بالترفّع عن مواقع الاستخفاف، واللاأبالية، في قوله، وسلوكه، وحركاته، وممارساته اليوميّة، وعليه بالتمنّع والتحصّن، عن كلّ ما يستوجب له الابتذال والضّعة، وأن يدخل في نفوس الناس بالهيبة والتواضع معاً.

---

(١) نوح: ١٣

إنّ عنصر القوّة في شخصيّة المعلِّم المصلح - يا ولدي -هو تحصينها بالوقار، وتجنيبها كلّ ما يستوجب لها الابتذال وسقوط الهيبة، وما يذهب بالسخيمة وماء الوجه، كرفع الصوت، وكثرة الضحك والمزاح، وغير ذلك من الممارسات التي تُنافي المروءة، وتؤدّي إلى خلع تلك الحُلية، التي قال عنها رسول الله ﷺ: «**ليس البرّ في حُسن اللّباس والزيّ، ولكن البرّ في السكينة والوقار**»[١].

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**الوقار حلية العقل**»[٢].

وجاء في وصف المؤمن في حديث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**المؤمن وَقورٌ عند الهزاهز، ثَبوتٌ عند المكاره، صَبورٌ عند البلاء**»[٣].

فاعلم - يا ولدي - بأنّ لك في نفوس الناس مكاناً قبل أن تفد عليهم، وأنّهم إذا ما رأوك، تطلّعوا فيك إلى خلق الدّين، وسمت الرّسالة، وهيبة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام.

فإنّنا -وإن كنّا لا نستطيع أن نحقّق للناس كلّ ما يطمحون إليه فينا من درجات الكمال- فعلى الأقلّ، أن نترك ما يمسّ المكانة، ويخدش

---

(١) المتقي الهندي - كنز العمال: ١ / ٦٤.

(٢) أبو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ح / ٧٨٥١ .

(٣) -**العلامة المجلسي - بحار الأنوار**: ٧٨ / ٢٧.

السمعة، ونعرض عمّا يُسقط المسحة العامّة لصفات المصلح الرّسالي، ومن أمثلة ذلك:

١- أن لا يُكثر أحدُنا من الضحك بملء فمه، فقد قال رسول الله ﷺ: «**ينبغي للعالم أن يكون قليل الضحك، كثير البكاء، لا يمازح ولا يصاحب ولا يماري ولا يجادل، إن تكلّم تكلّم بحقّ، وإن صمت صمت عن باطل، وإن دخل دخل برفق، وإن خرج خرج بحلم**»[١].

وقال الإمام علي عليه السلام: «**كان ضحك النبي ﷺ التبسّم، فاجتاز ذات يوم بفئة من الأنصار، وإذا هم يتحدّثون ويضحكون بملء أفواههم، فقال:**

«**يا هؤلاء من غرّه منكم أمله، وقصر به في الخير عمله، فليطّلع في القبور، وليعتبر بالنشور، واذكروا الموت فإنّه هادم اللذّات**»[٢].

وعنه عليه السلام: «**من كثر ضحكه ذهبت هيبته**»[٣].

وعنه عليه السلام: «**كثرة ضحك الرّجل تُفسد وقاره**»[٤].

---

(١) المتقي الهندي - كنز العمال: ٢٩٢٨٩

(٢) أمالي الطوسي: ٥٢٢ / ح: ١١٥٦.

(٣) الحراني - تحف العقول: ص ٩٦.

(٤) أبو الفتح الآمدي -غرر الحكم: ح / ٧٠٩٩.

نستوحي من هذا الاقتران، بين الضحك وبين ذهاب الهيبة وفساد الوقار: أنّه ما هو إلّا إجراء ربّاني بحقّ كلّ من لم يرجُ لله وقاراً، ولم يخشَ له هيبة، فحقّ لله عزّوجلّ أن ينزع مسحة الوقار والهيبة منه.

ولنترفّع كذلك، عن الأحاديث والفكاهات والحكايات المضحكة، كما قال الإمام علي عليه السلام: «**وقّروا أنفسكم عن الفكاهات، ومضاحك الحكايات، ومحالّ الترّهات**»[١].

٢- أن لا يُكثر أحدنا المزاح مع الغير، فقد قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**إيّاكم والمزاح فإنّه يذهب بماء الوجه ومهابة الرجال**»[٢].

وفي غرر الحكم: عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**كثرة المزاح تُسقط الهيبة**»[٣].

وقال عليه السلام: «**من كثر مزاحه قلّت هيبته**»[٤].

ولا يتناقض هذا الموقف - يا ولدي - مع كون المؤمن هشّاً بشّاً، لأنّ هشاشة الطبع: رقّته وأريحيّته، وبشاشة الوجه: بِشْرُه وظهور البسمة

---

(١) ابو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ح / ١٠٠٩٧.
(٢) الشيخ الكليني -رحمه الله- الكافي: ٢ / ٦٦٥.
(٣) ابو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ح / ٧١٠١.
(٤) ابو الفتح الآمدي - غرر الحكم: ح / ٨٠٩٥

على تقاسيمه.

كما جاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لقمان لابنه: «**إذا سافرت مع قومٍ فأكثر استشارتهم في أمرك وأمرهم، وأكثر التبسّم في وجوههم، وكن كريماً على زادك بينهم، وإذا دعوك فأجبْهم، وإذا استعانوك فأعنْهم، واغلبهم بثلاث: طول الصمت وكثرة الصلاة، وسخاء النفس بما معك من دابّة أو مال أو زاد...**»[1].

ولقد كان المعلّم الأوّل رسول الله صلى الله عليه وآله كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بشوشاً من غير ضحك، محزوناً من غير عبوس، جواداً من غير سرف، رقيق القلب، رحيماً بكلّ مسلم، وإذا مزح كان مزاحه في حقّ. كما قال صلى الله عليه وآله في هذا الصدد: «**إنّي أمزح ولا أقول إلّا حقّاً**»[2].

وكانت قد أتت إليه يوماً امرأةٌ عجوز، فقال صلى الله عليه وآله: «**لا تدخل الجنّةَ عجوزٌ**) فبكت،فقال: «**إنّك لست يومئذٍ بعجوز**»، قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا**﴾[3].

وعن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام: قال: «**إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله، كان**

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٧٣ / ٢٧١

(٢) شرح نهج البلاغة: إبن أبي الحديد: ٦ / ٣٢٠

(٣) الشيخ الكليني - رحمه الله - الكافي: ٢ / ٦٦٣.

يأتيه الأعرابي فيهدي له الهديّة، ثم يقول مكانه: أعطنا ثمن هديّتنا، فيضحك رسول الله ﷺ، وكان إذا اغتمّ، يقول: ما فعل الأعرابي؟ ليته أتانا»[1].

كانت رسالة التبليغ الإسلامي التي حملها رائد الرّسالة الأوّل رسول الله محمّد ﷺ، وبلّغها إلى الأمّة وهو لا يملك مالاً ولا ذخيرة من ذخائر الدنيا، قد أخذت أثرها في النفوس من خلال رائدها ومبلِّغها الذي تحرّك بها، وتحرّكت بأخلاقه ورقّة طباعه.

*****

(١) نفس المصدر .

١١- أن تؤثر همّ رسالتك على الدنيا

إعلم - يا ولدي - أنّ الذي لا ينبغي، وأنّ ما هو مرفوضٌ في حياة ومنهج المصلح الرّسالي: أن ينخرط في حبّ الدنيا للدنيا، ويتهالك في طلبها لبهرجها وخيلائها.

لأنّ من تفانى في الدنيا، ومن جدّ في طلبها عَجَزَ عن طلب الآخرة، ومن لم يطلب الآخرة لم يُضئ قلبُه بنور العلم، ومن لم يضئ قلبه بنور العلم لم يؤدِّ رسالة التبليغ.

فما دخل حبّ الدنيا في قلب طالب العلم - يا ولدي - إلّا صرفه عن طريق محبّة الله عزّوجلّ، وإذا ما ابتعد العالم عن محبّة الله تعالى فقد قَطَع الطريق على عباده للوصول إليه عزّوجلّ.

وقد سبق أنْ قدّمنا لك ما جاء في مُنية المريد عن النبيّ ﷺ: **أنّ موسى** عليه السلام لقي الخضر عليه السلام **فقال أوصِني، فقال الخضر: يا طالب العلم إنّ القائل أقلّ ملالةً من المستمع، فلا تملّ جلساءك إذا حدّثتهم، واعلم أنّ قلبك وعاء فانظر ماذا تحشو به وعاءك؟ واعرف الدنيا وانبذها**

وراءك. فإنّها ليست لك بدار. ولا لك فيها محلّ قرار. وإنّها جُعِلت بُلغةً للعباد ليتزوّدوا منها للمعاد[١].

ويُمكن أن نستوحي هذا المعنى ممّا أوحى به الله عزّوجلّ إلى نبيّه داود عليه السلام فقال: «**لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدّك عن طريق محبّتي، فأولئك قطّاع طريق عبادي المُريدين، إنّ أدنى ما أنا صانعٌ بهم أنْ أنزعَ حلاوة مُناجاتي من قلوبهم**»[٢].

فأنت في طريق المسيرة التبليغية - يا ولدي - إمّا أن تستحبّ دنياً تَبسط لك أجنحتها، وتنصب لك شباكها، وتتزيّن لك ببهرجها، وتُقعدك عن أداء واجبك الرساليّ، وعن التفكير في قضايا الناس وكيفية تقديم الحلول لها. أو أن تعيش همّ الرسالة التبليغية التي أنت مسؤولٌ عنها، فتتحمّل الأذى والعناء في سبيلها.

فإن ركنت إلى الدنيا وأتتك مطيعةً لمطامحك ومطامعك فيها، فإنّها ستحمل لك بين ثناياها عقبات وعثرات، من العُجْب، والغرور، والأنا، والكبرياء.

وما أقساها وما أخطرها من أمراض، تحجب عنك رؤيتك

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الانوار: ١/ ٢٢٦- ٢٢٧.

(٢) الشيخ الطبرسي - مشكاة الأنوار: ١ / ٣١٥.

لطريقك، وتمنعك عن الوصول إلى قلوب الناس.

واعلم أنّ عدوى أمراض أهل الدّنيا للجاهل أسرع من عدواها للعالم والمتعلّم، فليكن علمك وقايةً لك منها.

فانظر - يا ولدي - إلى ما يقرّره القرآن من موقفين لابُدّ أن يتكرّرا على حياة الناس أمام كلّ بهرج وزينة من بهارج الدنيا وزينتها، هما:

١- موقف الجاهلين الذين أُصيبوا بعدوى أهل الدنيا.

٢- ويقابله موقف أهل العلم تجاه الدنيا وزينتها وغرور أهلها.

قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾[1].

فقد انطلق أولئك لإبداء ما في أنفسهم من خلال موقفهم الهزيل، لأنّ عدوى الكبرياء والخيلاء من أهل الدّنيا جعلتهم لا ينظرون إلّا من خلال هذه الزاوية التي تقوقعت فيها أنفسهم، فرأوا أنّ المجد والخلود ورفعة القدر، يتمثّل في الدّنيا وبهرجها وزينتها.

فتمنّى أولئك أن يكون لهم ما لقارون، متغاضين عن غروره

(١) القصص: ٧٩ - ٨٠.

وكبريائه وتعاليه على رسالة السماء، فحكى القرآن عنهم قولهم: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. أمّا أهل العلم، فقد انطلقوا من موقع الصّحوة الفكريّة، والقوة الرّوحية، ومن موقع الرّسالة التي حملوها، ليقرّروا أمام أهل الدّنيا:

أنّ ما عند الله عزّوجلّ من ثواب ونعمة دائمة مشروطة بالصبر على الأذى في سبيل طاعته، هو خير للذين آمنوا وعملوا الصالحات ممّا أوتي أهل الدّنيا، فحكى عنهم القرآن قولهم لأهل الدنيا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾.

فإنْ أردت - يا ولدي - أن تعيش همّ رسالتك، فعليك أن تفكّر وتتدبّر في كيفية الخلاص من شباك دنياك، وأن تتفادى خطر هذه الأمراض قبل أن ترديك في مهالكها.

لأنّ الدّنيا تجرّك إلى حبّ الجاه، والجاه يجرّك إلى مخالطة السلطان، ومخالطة السلطان تجرّك إلى المداهنة على المنكر والانحراف، والإقرار على الظلم والجور، ممّا يستوجب من الله اللعنة وسوء الدار.

وعن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال: «**سمعت جدّي رسول الله ﷺ يقول: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلّاً لحرام الله، ناكثاً عهده، مخالفاً**

لسنّة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعلٍ ولا قول كان حقّاً على الله أن يُدخله مدخله...»[١].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**ملعون ملعون عالمٌ يؤمُّ سلطاناً جائراً معيناً له على جوره**»[٢].

وعنه عليه السلام: «**من ازداد في الله علماً، وازداد للدنيا حبّاً، ازداد من الله بُعْداً، وازداد الله عليه غضباً**»[٣].

وعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**إذا رأيتم عالماً محبّاً للدنيا، فاتّهموه على دينكم فإنّ كلّ محبّ شيءٍ يحوط ما أحبّ**»[٤]، لذا فإنّ لزاماً عليك -يا ولدي- أن تفكّر في كيفية تفادي هذا الخطر بعدّة أمور:

١- عليك أن تستفيد مع العلم قرينين لا ينفكّان عنه، وهما: التقوى والصّبر، اللذان يشكّلان -مجتمِعَين- عنصر المناعة والقوّة في نفسك، فكن حريصاً عليهما، كما أنّك حريص على خلق المناعة في بدنك.

فقد أكّد القرآن الكريم: أنّ الحركة الروحية، المشبعة بنور الإيمان

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٤٤ / ٣٨٢.

(٢) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٧٥ / ٣٨١.

(٣) الإختصاص: ٢٤٣.

(٤) الشيخ الطبرسي - مشكاة الأنوار: ١ / ٣١٥ نقلا عن الكافي: ١ / ٣٧.

واليقين والخشية والخشوع، هي الحصيلة من الحركة العلمية الفاعلة في حياتك، كما أنّها هي الدليل على انسجامك مع قواعد العلم وأُسُسه ومفاهيمه وقِيمه، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[٢].

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**حَسْبُك من العلم أن تخشى الله، وحَسْبُك من الجهل أن تُعجَبَ بعلمك**»[٣].

٢- أن تشعر بأنّ رسالة التبليغ في أهدافها وغاياتها، هي نوعٌ من أنواع المتاجرة مع الله لا مع الناس، لأنّ المتاجرة مع الناس - يا ولدي - لا تتحرّى فيها إلّا المنافع المادّية، من المال، والجاه، والسلطة، والفخر.

أمّا المتاجرة مع الله عزّوجلّ، فتعني: أنّك تتحرّى رضوانه في كلّ نَفَسٍ من أنفاسك، وفي كلّ حركة من حركاتك.

لأنّك تؤمن بأنّ هناك قيماً ومُثُلاً في الحياة، هي أعلى وأغلى من كلّ

---

(١) فاطر/ ٢٨.

(٢) الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩.

(٣) أمالي الشيخ الطوسي: ٥٦ / ٧٨.

اعتبار، وهي التي تبقى خالدة في سفر حياتك، وتؤلّق تأريخك، لذا فهي أكبر من كلّ الدّنيا وزينتها ومباهجها، وفيها تذوب متاعبها وآلامها من أجل هذه الرسالة، وهذا الإحساس يُستوحى من كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه للعلماء:

«هجم بهم العلمُ على حقائق الإيمان، وباشروا روح اليقين، فاستلانوا ما استوعره المُترفون، وأَنِسُوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلّقة بالملأ الأعلى»[١].

٣- أن تشعر بأنّك الأمين على رسالة العلم والتبليغ، ولا تلتقي أمانتك على هذه الرسالة مع حبّ الدنيا وزينتها قَطّ.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«العلماء أمناء الرّسل ما لم يخالطوا السلطان، ويداخلوا الدنيا، فإذا خالطوا السلطان وداخلوا الدنيا، فقد خانوا الرّسل فاحذروهم»**[٢].

وقال صلى الله عليه وآله: **«تناصحوا في العلم، فإنّ خيانة أحدكم في علمه أشدّ من خيانته في ماله، وإنّ الله سائلكم يوم القيامة»**[٣].

---

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ١٧ / ١٦١.
(٢) المتقي الهندي - كنز العمال: ح / ٢٨٩٥٢.
(٣) أمالي الشيخ الطوسي: ح / ١٢٦ / ١٩٨.

فعليك - يا ولدي - أن تستوحي من هذين النصّين: أنّ العلماء يحملون ما يحمل رسل الله عزّوجلّ من تعاليم السّماء، إذ استودعهم الأنبياء هذه الرّسالة.

فإذا خالط العالم سلطاناً جائراً فلم يغيّر عليه بفعلٍ ولا قول طمعاً في الجاه، فقد خان رسالة الأنبياء، لما يدخله من الطمع بما في يديه، والإغضاء عن ظلمه وجوره.

*****

١٢ - ليكنْ غِناك بالله لا بأهل الدنيا

إعلم -يا ولدي- أنّ رسالة العلم والتبليغ، إنّما تتنافر مع حبّ الدنيا وطلبها، لا مع سعة الحال وراحة البال من همّ الاحتياج للناس.

فعندما تشاهد طالباً من طلّاب العلم أو غيره ميسوراً مرفّهاً، فإنّه لا يعني في كلّ الأحوال كونه محبّاً للدنيا، إلّا إذا كان جادّاً في طلبها، باذلاً جهده في الرّغبة فيها، لأنّ من أحبّ شيئاً بذل جهده فيه وتفانى في طلبه.

ولكنّ الذي لا يزال يفهمه الكثير من الناس -أو قل: البعض من طبقة الناس الأغنياء- واتّخذوه وسيلة للطعن في شخصية العالم، هو: أنّ على رجل العلم أنْ يتنازل تماماً عن سعة العيش، ويتدنّى بمستوى أساسيات حياته من المسكن والملبس والمأكل، إلى ما هو أدنى من المتوسّط.

لأنّ هؤلاء لا يؤمنون بأنّ الله عزّوجلّ هو الرزّاق ذو القوّة المتين، فهم أغنياء وليسوا بمؤمنين، وإن صلّوا وصاموا وحجّوا فإنّهم إن

رأوك استغنيت عنهم قالوا: أخذ هذا منّا ومن خيراتنا وفَضْلنا عليه، وإن رأوك افتقرت، واحتجت إليهم، كانت هذه أمنيتهم ورغبتهم أنْ يروك فقيراً إليهم.

لأنّهم ينطلقون في تصوّراتهم ممّا انطلق منه الكافرون ضدّ الأنبياء والرّسل، كما قال الله عزّوجلّ في كتابه الكريم: ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ**﴾[1].

فلا تعجب - يا ولدي - من وجود نماذج من الناس، تتحرّك على خطّ أولئك الذين كانوا يقتلون الأنبياء بغير حقّ، وينتقمون منهم لأنّهم يتصوّرون أنّهم ينافسونهم على مراكزهم.

وأمّا هؤلاء الناس، فإنّهم يقتلون وَرَثة الأنبياء بألسنتهم، لأنّهم يتصوّرون أنّهم يزاحمونهم على دنياهم.

فإذا التحق العالم بمستوى هؤلاء الميسورين المرفّهين من الناس، وشاركهم في سعةٍ من العيش، فقد أصبح في نظرهم محبّاً للدنيا، أو سارقاً من الناس حقوقَهم في العيش.

---

(١) آل عمران: ١٨١

في الوقت الذي ترى فيهم من يلتهم الدنيا من حِلِّها ومن غير حِلِّها، لا يُعتبر في نظرهم محبّاً للدنيا وسارقاً من الناس حقوقهم في العيش.

وهذه الظاهرة - يا ولدي - ستكون من مواضع الابتلاء التي ستعيشها وتُواجهها خلال حركتك التبليغية.

فعليك أن تتدرّع بالتقوى والصبر على المعاناة، وأن تعلم أنّك مع هذه العتمة في موقف الناس بين أحد أمرين:

إمّا أن تتطبّع على التنازل عن مظاهر الترف والرّفاء المشروع، وتتدنّى -ولو بجزءٍ- في مستوى العيش، وتلتزم بما التزم به أمير المؤمنين عليه السلام، من مشاركة الناس في جشوبة العيش.

وهذا ما لا تستطيع الصبر عليه كما قال عليه السلام: «**ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك، فأعينوني بورعٍ واجتهاد وعِفّةٍ وسداد**»[1].

أو أن يتفهّم الناس - من خلال رسالتك التبليغية، ومن خلال عطائك العلميّ، ومن خلال استقامتك العمليّة، والتزامك بالورع والاجتهاد في طاعة الله عزّوجلّ - أن يتفهّموا أنّ ما أنت عليه من النعمة

(١) محمد الريشهري - ميزان الحكمة: ٢ / ٢٨١.

والرّفاء في العيش لم يكن عاملاً من عوامل التهاون في أداء رسالتك ولم يُلهِك عن أداء واجبك.

بهذا يتفهّم هؤلاء ما هو الفرق بين كونك محبّاً للدنيا ومتهالكاً في طلبها، وبين كونك قد انبسطت لك سبلُ العيش تلقائياً بسببٍ من الأسباب.

واستذكر ما أوصى به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أولاده وأولياءه بالقول: «**إذا أردت عزّاً بلا عشيرة وهيبةً بلا سلطان فاخرج من ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعته**»[1].

*****

(١) العلامة المجلسي - بحار الأنوار: ٤٤ / ١٢٩.

١٣- انتظامك في خطّ المرجعيّة

واعلم - يا ولدي - أنّ من أهمّ خطوط مسؤوليتك التبليغية أن تنتظم في خطّ المرجعية الدينية الرشيدة، وأن تكون جزءً من هذا الخطّ في فكرك وروحك وسلوكك ووظيفتك التبليغية.

ولذا لم نقل الانتظام في خطّ المرجع الدّيني، إذ أنّ المرجعيّة لا تتمثّل في شخص المرجع فحسب، بالرغم من كونه المحور والعَمَد الذي تقوم به المرجعية الرشيدة.

بل إنّ كلّ فرد من الذين اندرجوا في خطّ الانتماء لهذه المؤسّسة، يعتبر جزءً من هذا البناء المترابط، الذي يعتبر المرجع فيه هو القمة التي تلقي عليه إشعاعها الفكري والرّوحي، وتَسِمُه بالشروط والمواصفات العالية، وتغذّيه بزاد الرّحلة التبليغية الطويلة.

﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ قَائِمًا بِالقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1].

---

(١) آل عمران: ١٨

فاعلم أنّ مركز الثقل في حياة الأمّـة، هي الشخصية العلمية القيادية العادلة المستقيمة، التي أنيطت بها مسؤولية الشهادة بالقسط والعدل على الناس، ومن أصدق مصاديق هذه الشخصية الشاهدة في هذا العصر، شخصية المرجعية الدينية التي تعتبر الحجّة البالغة على الأمة في حياتها، وعلى هذا، لابُدّ أن يكون المبلِّغ هو النافذة والباب لهذا البناء في نفس الوقت، وذلك:

إنّ كونه النافذة، ذلك لأنّ من خلاله تتنسّم الأمة من المرجعية عطر الهدى، والرشد، والصلاح، والأمل، وتستلهم العزم والقوّة والصّبر في طريق تحرّكها.

وكونه البوابة للمرجعية، فلأنّ من خلاله تدخل الأمّة إلى رحاب هذا البناء، وتدرك أنّ من الضرورة أن تطرح قضاياها ومشاكلها، وتعلن تأييدها وتلاحمها وتعهّدها، بأن تكون الأمّة الأمينة المعطاءة والملتزمة بتوجيهات ومقرّرات ومواقف المرجعيّة الدينية الرشيدة.

لذا فإنّ أيّ مشروع من المشاريع التي في نظرك أنّها تصبّ في قناة المصلحة العامة، ينبغي أن يخضع لدراسة دقيقة، من حيث النتائج والآثار من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى: بحكم الانتظام في هذا الخطّ، ينبغي أن تأخذ الشرعيّةَ من المرجعية لمشاريعك، بأن تكون المرجعيةُ

على علم - ولو إجمالاً - بمضمون هذا المشروع أو ذاك.

وعليه، لا ينبغي أن تُعطى بعض المشاريع هالة أكبر من حجمها بنسبتها إلى قرارٍ مباشر من المرجعية - بغية اكتساب المكانة والموقع الاجتماعي - مع ما يتوقع فيها من النتائج والآثار السلبية التي تنعكس - لا محالة - على المرجعية كما حدث للبعض، أمّا ماذا يعني انتظامك في خطّ المرجعية؟ فيتلخّص ذلك في عدّة مفاهيم:

أوّلاً: التحرّك العملي في هذا الإطار

فعليك أن تكون - يا ولدي - واضح المعالم كالورقة تحت الشمس، بأن لا تشعر الأمّة بأنّ هناك جانباً مُعتماً وغامضاً في شخصيتك وحركتك، لأنّك تحمل لها الموقف الشرعيّ في كلّ قضاياها.

لذا عليك أن تتحرّك في الإطار العام لهذه البنية التي لها رؤيتها ورأيها في كلّ قضية من قضايا الأمّة وانتماءاتها واتجاهاتها وتوجّهاتها، فلا تجعل الناس يتساءلون عن انتمائك واتّجاهك الخاصّ قبل أن يقبلوا مواعظك ونصائحك.

كما نُلاحظ اليوم: أنّ من الأسباب التي تساهم في عدم تأثّر الناس بموعظة المرشد الدينيّ، هو العتمة وعدم الوضوح في شخصيّته، من

خلال تعدّد الانتماءات والميول الفئوية والحزبية.

ثانياً: التعريف بضرورة المرجعية

في أوائل الخُطى أن تعرف الأمّة، أنّ المرجعية تعتبر مركزاً هامّاً لمخاض علميّ عميق ينتهي إلى الاجتهاد، الذي أقرّته الرّسالة منذ أعماق التأريخ، والذي ترتبط شرعيته بعملية التكامل العلميّ والمعرفة بأصول الاجتهاد وقواعده.

إذ ليس الاجتهاد هو محض العمل بالرأي دونما قاعدةٍ علمية، أو وعي وفطنة للمدرك العقلي والشرعيّ الذي يستند إليه المجتهد في الحكم الذي يتوصّل إليه.

فبما أنّ الرسالة الإسلامية رسالة متحرّكة في حياة الأمة، هدفها إعطاء الحلول والعلاجات للقضايا والمشاكل الاجتماعية على مختلف مجالاتها وتطوّراتها، لذا فإنّ المرجعية هي المؤسّسة التي تمثّل الرّسالة في حركتها باتّجاه ضمان مصلحة الأمّة.

فهي مصدرٌ لرجوع الأمّة لحلّ قضاياها الحياتية على اختلاف أنواعها وحجومها وتطوّراتها وظروفها ومستجدّاتها، وفقاً لما جاء عن الإمام الحجّة المهدي عجّل الله تعالى فرجه من توجيهٍ نحو الاستفادة

منها واستنطاقها بالحلول والعلاجات لمختلف قضايا الحياة،فقال: «**وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا بها إلى رُواة حديثنا، فإنّهم حجّتي عليكم، وأنا حُجّة الله عليهم**»(١).

«**فأمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه، مُخالفاً لهواه، مُطيعاً لأمر مولاه، فللعوامّ أن يقلّدوه، وذلك لا يكون إلّا بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم**»(٢).

ثالثاً - تعريف الأمّة بمقام المرجعية

بما أنّ لكلّ جيلٍ من أجيال الإسلام ورجال الإيمان قدوة، بل أكثر من قدوة يُحتذى بسلوكهم وأخلاقهم، ويُنتهل من معين علمهم ومعرفتهم، وخزين الحكمة التي منحهم الله عزّوجلّ.

فعلى هذا الجيل والأجيال القادمة من أهل العلم والتبليغ، أن يتّخذوا قدواتهم في الحياة، وأن تتهذّب نفوسهم على ضوء ما يرونه ويطالعونه في المرجعية من مُثُل عُليا وأخلاق مُثلى حفل بها تأريخُهم.

وبالتالي على المبلِّغ الرسالي أن يعرّف الأمة أنّ لكلّ فرد من أعضاء مؤسّسة المرجعية دوره وواجبه المنوط به في ضمن هذه المؤسّسة، وأنّ

(١) - الشيخ علي النمازي - مستدرك سفينة البحار -: ٢١٧ / ١.
(٢) -العلامة المجلسي - ﷺ بحار الأنوار --: ٢ / ٨٨

هناك واجبات مشتركة تضطلع بها هذه المؤسّسة وهي:

أ -: كونها سلطة تشريعية، مهمّتها التوصّل إلى بلورة الأحكام الشرعية في مختلف القضايا التي تمسّ حياة الأمة، من أجل سلامة الموقف الشرعي فيها، وإسباغ الطابع الشرعي سلباً أو إيجاباً على مفردات الواقع.

ب -: مراقبة ورصد مواقع الخلل في شؤون الأمة، بالطرق المباشرة أو غير المباشرة، ومحاولة إصلاح هذا الخلل أو ذاك في تحرّك ونشاط أبناء الأمّة، وتوجيه كلّ فصيلة اجتماعية إلى ما يصلحها من الالتزامات والتطبيقات، وفق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ج -: حماية التشريع، وحراسة أحكامه وأُسسه من التلاعب والتحريف والتغيير، الذي يصبّ في مصلحة بعض الجهات المنحرفة، التي تحاول التسلّل إلى واقع رسالة الأمة لزرع وترويج ما هو خارج عن حدود وضوابط هذه الرسالة، بغية تبرير الانحراف العقائديّ والفكريّ والسلوكيّ الذي تتبنّاه تلك الجهات.

د -: كونها منبعاً لإعطاء الزخم الرّوحي، وتموين الأمّة بطاقة الدفع وقوّة الحركة في مجال التطبيق والعمل، وإشعارها بالارتباط بمركز هذه القيادة الرّوحية.

ولذلك يُعتبر التقليد للأحياء من مراجع الدين، مضافاً إلى كونه الضمان لحركة ومرونة الرسالة ومواكبتها لمستجدّات القضايا في حياة الأمّة، فهو من أجل أن تبقى الأمة في حالة ارتباط مباشر بالقدوة، وبمنبع الطاقة (المرجعية الدينية)، بصفتها الامتداد الطبيعي لوجود المعصومين عليهم السلام.

لأنّ المرجعية تمثّل النيابة العامّة للإمام المعصوم عليه السلام، وليست علاقة الأمّة بالمرجعية مجرّد علاقة بتراثٍ تأريخي حتى يُمكن الاكتفاء عن تقليد الأحياء.

رابعاً - التعريف بمسؤولية الأمّة تجاه المرجعية

عليك - يا ولدي - أن تعرّف الأمّة بمقام المرجعية، وتبصّرها برؤاها ومواقفها من الأحداث والوقائع الفعليّة، وأن تتحرّى جانب الأمانة في نقل الفتوى والحكم الشرعي، وأيّ رؤية من الرّؤى والمواقف التي تصبّ في إطار مصلحة الأمة.

وبقدر ما تكون للأمة على المرجعية حقوق، تندرج في خطّ مسؤولية المرجعية ودورها في حياة الأمة، فإنّ على الأمة أن تعرف ما عليها من واجب ومسؤولية تجاه قيادتها الروحية، وذلك:

أ -: في طليعة هذه الواجبات، هو: واجب الطاعة للمرجعية، والالتزام بتوجيهاتها، وتطبيق مقرّراتها، لا بصفتها الشخصية، وإنّما بصفتها المؤسّسة المخوّلة من قبل الإمام المعصوم عليه السلام بتوجيه الأمة وإرشادها باتّجاه السلامة في الموقف الشرعي في القضايا العامّة والخاصّة، لذا يتوجّب على الأمة أن تدين بالطاعة والولاء لهذا الخطّ باعتباره ممثّلاً للنيابة العامة عن الإمام المعصوم عليه السلام.

ب -: أن تعرف الأمة واجب التكريم والاحترام لهذا الخطّ، تقديراً للجهود المضنية، والمشاقّ التي تتحمّلها المرجعية، خصوصاً إذا عرفنا أنّ المرجع الديني - بحكم البعد الزمني بينه وبين عصر المعصوم عليه السلام - يتفانى ويُذيب عمره في بذل الجهد والوسع لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلّتها، من أجل تخليص الأمة من التبعات والمسؤوليات أمام الله عزّوجلّ.

فإنّ في احترامها وتكريمها تكريماً لصاحب الرسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الطاهرين عليهم السلام، لذا جاء في الحديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**من وقّر عالماً فقد وقّر ربّه**»[1].

ج -: التصدّي للتقوّلات والدعاوى التي يُثيرها المغرضون وأعداء

(١) أبو الفتح الآمدي - غرر الحكم -: ١ / ٧

الرسالة والمذهب ضدّ هذا الخطّ، والتي تستهدف التسقيط أو التقليل من دور القيادات الروحية، وانتزاع ثقة الأمة بهذه القيادات.

وقد تدفع الجهات المغرضة بأبناء الأمة ذاتها بهذا الاتّجاه لقاء بعض المنافع الدنيوية الوضيعة، من أجل عرقلة الكثير من المواقف والمشاريع التي ترتبط بالمصالح العامة.

ومن هنا فقد ابتُلِيَت المرجعية بثلّةٍ من الناس الذين لم يستضيئوا بنور الحقّ، ولم يلجأوا إلى ركنٍ وثيق، وهم الهمج الرعاع الذين يتبعون كلّ ناعق، ويميلون مع كلّ ريح، ويعطّلون على المرجعية الرسالية الكثير من مشاريعها ومواقفها، وعن إعلان فتاواها وقراراتها لأنّها تخشى هؤلاء العامة من الناس الذين لا يرحمون ولا يحترمون آراءها المضادّة لأهوائهم.

د -: أن لا يكون الاختلاف في التقليد بين الأفراد داعياً إلى تشرذم الموقف تجاه هذه المؤسّسة، لأنّ الاختلاف في التقليد أمرٌ طبيعيّ ينشأ من خلال الحجج والأمارات الظاهرية التي تقوم على إثبات اجتهاد المرجع وأعلميّته.

فعلى الأمة أن تعرف أنّ التقليد الذي يستند إلى حجّة شرعية، فهي مُبرئة للذمّة في حقّ صاحبها إن ثبت له الاطمئنان من ورائها باجتهاد

المجتهد وعدالته، وليست حجّةً على تكفير هذا أو تفسيق ذاك، لا لشيء إلّا لأنّه لم يلتقِ معي في التقليد، ولم يشهد تأريخ المرجعية مثلَ هذا الأمر، كما أنّ الاختلاف في الفتوى لا يمنع من اتّحاد موقف هذه المؤسّسة تجاه قضية عامّة من قضايا المسلمين.

هـ -: أن تعرف الأمة ما هو دور المرجعية، وعليها أن تسأل ذوي الاختصاص عن مسؤولية المرجع الديني، وبالتالي يعرف الفرد من أبناء الأمة أين يضع طلبه، وبم يطالب المرجعية دونما خلطٍ بين المطالب.

فمثلاً: من واجب المرجعية أن تراقب - كما قلنا - مواقع الخلل في أداء المجتمع والدولة للواجب، فتوجّه رجل الدولة - ما أمكنها - بضرورة الحفاظ على أمانة المنصب، وعلى ضرورة الوفاء بالحقّ الاجتماعي في الإدارة والإعمار وخدمات الماء والكهرباء والوقود وغير ذلك، ولكنّها غير ملزمة بما إذا لم تؤخذ تلك الوصايا.

فإذا ما عرفت الأمة أين تضع مطاليبها، تستطيع أن تعرف ما إذا كانت المرجعية قد قصّرت في أداء مسؤوليّتها أم لم تقصّر، ولأجل ذلك لابُدّ أن لا تُطالَبَ المرجعية إلّا بعمومات القضايا بصفتها سلطةً توجيهية لا تنفيذية.

وفّقنا الله وإيّاك - يا ولدي - لأداء أمانة الرسالة، ووقانا الله وإيّاك

شرّ الإغضاء والتغاضي عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنّه نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على خير خلقه محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

٢٧ / شوال المكرم / ١٤٢٧

*****

المحتويات

الإهداء	٣
المقدمة	٧
المحور الأوّل / الحوزة ورسالة العلم	١١
معنى كلمة الحوزة	١٣
ولادة الحوزة العلمية	٢٥
الانتماء إلى الحوزة ماذا يعني؟	٣١
المدلول الأوّل: القوّة	٣٣
المدلول الثاني: المسؤوليّة	٣٩
ما بين المنهج الحوزتي والأكاديمي؟	٤٣
عقبات في طريق المطامح	٦٩
أوّلاً: عقبة السكن	٧٣

ثانياً: عقبة الراتب المعيشي ٧٥
ثالثاً: عقبة المنهج ٨١
رابعاً: عقبة العلاقات ٨٣
العلم وشعار الجوع والغربة ٩١
المحور الثاني/ الحوزة ورسالة التبليغ ٩٩
المبلّغون رسل الله في الأرض ١٠١
عناصر القوّة في شخصية المبلِّغ ١٠٥
أوّلاً: الوعي الفكري والرّوحي ١٠٩
ثانياً: الوعي الوظيفي ١١٣
ثالثاً: الوعي الاجتماعي الميداني ١١٧
رابعاً: الوعي الثقافي ١٢٣
خامساً: الوعي السياسي ١٢٧
بين الأسلوب العلمي والاجتماعي ١٣١
كيفية الدخول إلى عواطف الآخرين ١٣٣
١- اعتماد القرآن والعترة منهجاً للتربية ١٣٥

٢- خلق القدوة الصالحة من ذاتك ١٤١
٣- خلق القدوات الصّالحة من محيطك ١٤٧
٤ - السخاء وبذل المعروف للمتعلّم ١٤٩
٥- الصبر ولين الطبع ١٥١
ما يُستوحى من الموقف ١٥٥
٦- مشاركة الناس والتواضع لهم ١٦١
٧ - أن تفتح قلبك للنقد البنّاء ١٦٥
٨ - تفادي المسافة بين القول والعمل ١٦٩
٩- الانفتاح على الدائرة الإنسانية ١٧١
١٠- التمتّع بالوقار والسّكينة ١٧٧
١١- أن تؤثر همّ رسالتك على الدنيا ١٨٣
١٢ - ليكنْ غِناك بالله لا بأهل الدنيا ١٩١
١٣- انتظامك في خطّ المرجعيّة ١٩٥